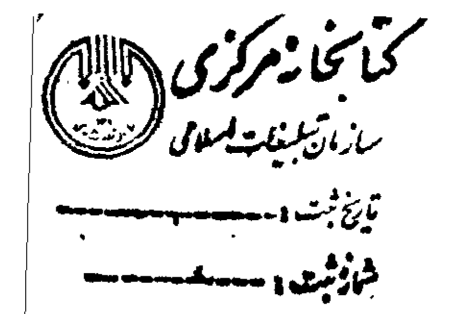




التعرف على القرآن الكريم

المؤلف :

آية الله الشهيد المرتضى المطهري



منظمة الاعلام الاسلامي

قسم العلاقات الدولية

الكتاب: التعرف على القرآن الكريم
المؤلف: آية الله الشهيد مرتضى المطهري
المترجم: ناظم شيرواني
الناشر: منظمة الاعلام الاسلامي ــ قسم العلاقات الدولية
المطبعة: فجرالاسلام ــ طهران
التاريخ: ربيع الثاني ١٤٠٣ هـ
عددالنسخ المطبوعة: ١٠,٠٠٠ نسخة

چاپ شركت افست «سهامى عام»

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر:

لقد كان الاستاذ الشهيد آية الله المطهري مغرماً بالقرآن، مولعاً بتلاوته تلاوة تفاعل، و تعامل.

ولاغرو فهو تلميذ مدرسة اهل البيت عليهم السلام، مدرسة العقل و العاطفة الواعية المستمدة من معين القرآن الكريم.

و هو بالتالي تلميذ الامام الخميني القائد، و هو من عجنت روحه بحب القرآن، و غاص في اعماقه و استمد منه بعدالنظرة، و قوة العزيمة، وصلابة الموقف، والاطمئنان بالمستقبل الذي وعدالله تعالى به.

و نحن هنا نشهد الاستاذ الشهيد المطهري يعرفنا بنظرة جديدة على بعض الآفاق القرآنية. و قدكان يسعى لتقديم دراسة متكاملة عنها حتى النفس الاخيرمن حياته الطاهرة. واذا كان لم يوفق لتقديمها متكاملة «فيكفيه فخرا» أنه استطاع ان يزرع النظرة السديدة في قلوب طلاب العلوم الدينية، بل فى قلوب شباب جيل الثورة الاسلامية، و يوجد ذلك التيار الفكري الاصيل فى قبال التيارات التي كانت تعصف بشباب الامة وتحاول تخديره وابعاده عن مسيرته الصحيحة، وإلهاءه عن الهدف الاسلامي الثوري الاصيل.

ولئن لاحظنافي هذاالكتاب شيئاً من عدم السبك الكامل فذلك لانه لم يطرح بشكل كتاب و انما بشكل احاديث القيت في

فـتـرات، و نـقـلـت من قبل الآخر ين الى هذا الشكل، ولذا فمن الطبيعى ان لانجدالسبک المطلوب.وقد رجحنا ان يكون هكذا على اي تصرف فيه.
وختاماً؛

فـلـنـعـش مع هـذه الروح الـقـرآنـيـة الـرائعة،ولنعب من نميرها الثر العذب .

منظمة الاعلام الاسلامي
قسم العلاقات الدولية

بسمه تعالی

المقدمة

الكتيب الذي بين يديك حصيلة خمس محاضرات القاها الاستاذ الشهيد آية الله مطهري في جامعة شريف الصناعية عام ١٩٧٣. في ذلك الوقت كان مجتمعنا يشهد نمو كارثة عظيمة، كارثة ناتجة عن الفراغ الايديولوجي وعدم توفر اساس فكري مرصوص. وفي الوقت نفسه كان هناك عدد قليل من كبار المفكرين الذين كانوا يتنبأون بالحادثة قبل وقوعها، و كان عدد قليل منهم يفكر في ايجاد الحلول. في مثل هذه الظروف قرر معلمنا الكبير بالرغم من جميع الصعاب والمشاكل ولامبالاة المجتمع ازاء المناقشات الجدية والأساسية في المجالين الفكري والعقائدي و بالرغم من جميع الاخطار المتوقعة من قبل النظام، النهوض للنضال ضد تلك الكارثة التي كانت تهدد مجتمعنا و طابعه الاسلامي الأصيل.

إن المحاضرات الخمس التي القيت في ذلك العام كانت جزءاً صغيراً من مشروع كبير خطط له الاستاذ الشهيد من أجل عرض عمله الكبير، مشروع إقامة بناء عقائدي ثابت على أساس الفكر الاسلامي السليم، لكن مع بدء الاضطرابات الطلابية في تشرين الثاني من ذلك العام و هجوم حرس الجامعة على قاعات الدرس و بالتالي اغلاق الجامعات، توقف العمل في هذا المشروع بعد القاء عدة محاضرات دوّنت في هذا الكتيب.

التعرف على القرآن »ــ هو الاسم الذي انتخبه الاستاذ لتلك المجموعة من المحاضرات ــ كان مقرراً ان يكون مدخلاً لجملةٍ من البحوث العقائدية العميقة والأساسية ــ التي كانت عبارة عن: الله في القرآن، القرآن في القرآن، الرسول في القرآن، الانسان في القرآن و... الخ بحيث تشكل جميعها مجموعة غنية من المعارف والأفكار المدرجة في هذه الرسالة الالٓهية الأخيرة والكاملة، مجموعة كان بمستطاعها ان تكون بهيئة سلاح قوى بيد المناضلين المسلمين ليعطوا نضالهم عمقاً وثروة وأهم من ذلك اصالةً ليتمكنوا بواسطته ان يناضلوا ضد جميع اساليب الخداع و معاقل عبادة الباطل التي كانت تفرض على انسان قرننا الضائع والمتحير باسم الايديولوجية والرسالة، و يخرجوا مرفوعي الرأس و منتصر ين من الساحة.

و بالرغم من ان هذا التلميذ الحقيقي لرسالة القرآن واصل العمل في هذا المشروع بعد سنين من توقفه ولحدشهادته، لكن و مع كل الأسف لم تتح للاستاذ الفرصة للقيام بذلك العمل العظيم الذي استأنفه، و في منتصف الطر يق ــ في الوقت الذي كانت هذه الشجرة القو ية والمثمرة مستعدة لاعطاء الثمار ــ توقف ذهنه الفعال و قلمه القوي عن الفعالية والحركة، ذلك ان السائر ين في طر يق الباطل و عشاق الظلام والفوضى كانوا لايتحملون رؤ ية شمس افكاره و يعتقدون ان نجاتهم و راحتهم تتلخص في القضاء على الاستاذ.

اما حصيلة النشاط الدائب للاستاذ خلال الليل والنهار حتى آخر لحظة من حياته، فقد تمثلت بعشرات الآلاف من الاوراق المكتوبة التي أعدّت جميعها، المواد الخام اللازمة لإقامة البناء العظيم الذي كان الاستاذ يفكر به. و ستكون هذه الكتابات التي تنظّم تدريجياً و توضع تحت اختيار عشاق و معجبي الرسالة الاسلامية، مفتاح الطر يق الجديد

لدراسة ابعاد الوجوه المتعددة للرسالة التي تبني الانسان و تقرر المصير وسيكون لها دور كبيرٌ في احياء الافكار الاسلامية السليمة.

ومع ان هذا الكتيب غير كامل ولا يحتوي على بحث مفصل، غير انه جيد و مفيد مثل جميع محاضرات الاستاذ الشهيد و افكاره وان ماتم عمله لتنظيم هذا الكتيب كان عبارة عن نقل المحاضرات على الورق مع حذف بعض العبارات المكررة واكمال و تنقيح عبارات أُخرى.

و يؤكد المقدم مع اعترافه بعمله الناقص بان جميع اخطاء و نقائص النص ناتجة عن النقل او من عنده و ان الفائدة المعنوية والروحانية التي ستصيب القارىء من جراء مطالعة هذا الكتيب تنشأ من فكر الاستاذ العميق و معلوماته الغنية ومن ظل العلم الكبير و ايمان الاستاذ القوى.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

«التعرف على القرآن الكريم»

تعتبر معرفة القرآن بالنسبة لكل شخص عالم بصفته شخصاً عالماً وكل فرد مؤمن بصفته فرداً مؤمناً، امراً ضرورياً ولازماً. اما بالنسبة لعالم متخصص بعلم الانسان وعلم الاجتماع فان معرفة القرآن تكون ضرورية من هذه الناحية وهي ان هذا الكتاب كان له التأثير في تكوين مصير المجتمعات الاسلامية بل في تكوين مصير البشرية، ثم ان القاء نظرة على التاريخ يكشف الحقيقة التالية وهي ان أي كتاب لم يؤثر عملياً مثل القرآن على المجتمعات البشرية وعلى حياة الانسان* ولهذا السبب فان القرآن يدخل من تلقاء نفسه الى نطاق بحث علم الاجتماع ويصبح واحداً من مواضيع دراسة هذاالعلم، ويعني هذا الكلام انه لايمكن اجراء دراسات وتحقيقات حول تاريخ العالم خلال القرون الاربعة عشرة الماضية بشكل عام والمجتمعات الاسلامية بشكل خاص، مالم تتم معرفة القرآن.

---

* إن مسألة في اي مجال حصل ذلك التأثير؛ هل غيرمسير التاريخ من جهة سعادة ورفاه البشرية اومن جهة النقص والانحطاط؟ وهل حصل تغيّروحركة في التاريخ بسبب تأثير هذا الكتاب وتدفق دم جديد في شرايين المجتمعات البشرية او بالعكس؟ هي مسألة خارجة عن نطاق بحثنا الراهن.

اما ضرورة معرفة القرآن بالنسبة لشخص مؤمن و مسلم، فتكمن في ان القرآن هو المصدر الرئيسي والأساسي لدين المسلم و ايمانه و فكره، و هو الذي يمنح حياته طابع السعي والحرمة والروح و يجعلها ذات معنى.

القرآن لايشبه بعض الكتب الدينية التي تطرح جملة من المسائل الرمزية حول الله و الخلق و التكوين و أقصى ما تضم عدداً من النصائح الاخلاقية البسيطة. ليضطر المؤمنون ان يبحثوا عن الأحكام والأفكار من مصادر أُخرى، فانه يشرح و يبين اصول المعتقدات و الأفكار و الآراء التي تعتبر لازمة و ضرورية للانسان بصفته موجوداً «ذا ايمان» و صاحب عقيدة و يوضح كذلك اصول التربية و الأخلاق و النظم الاجتماعية و العائلية و يكتفي فقط بوضع مهمة التوضيح و التفسير و الشرح و في بعض الأحيان الاجتهاد و تطبيق الأصول على الفروع، على عاتق الشريعة أوالاجتهاد. إذاً فان الاستفادة من أي مصدرآخر يعتمد على معرفة سابقة بالقرآن، فالقرآن يشكل مقياساً و معياراً لجميع المصادر الأخرى، لذلك يتوجب علينا ان نُقيّم الحديث والشريعة بمعيار القرآن لكي نقبله اذا كان مطابقاً للقرآن والاّ فلا نقبله.

و تشكل الأحاديث والكتب الأربعة التالية وهي: «الكافي» و «من لايحضره الفقيه» و «التهذيب» و «الاستبصار» و «خطب نهج البلاغة» و الصحيفة السجادية ايضا، أهم و أقدس مصادرنا بعد القرآن وتعتبر فروعاً الى جانب القرآن لكنها لا تصل الى مستوى القرآن و بعبارة أخرى لن تكون احاديث الكافي معتبرة مالم تكن مطابقة للقرآن الكريم و تعليماته وغير مغايرة له. لقد كان الرسول (ص) والأئمة الأطهار يطلبون من اصحابهم ان يُقارنوا بين احاديثهم والقرآن فاذالم تكن مطابقة للقرآن فليعلموا انها مفتعلة و مزيفة و منسوبة اليهم فهم لايقولون مالا يتفق مع القرآن.

«اقسام معرفة القرآن»

الآن و قد اتضحت ضرورة معرفة القرآن يجب ان نعرف ماهو طريق معرفة هذا الكتاب؟ بصورة عامة فان دراسة و مطالعة كل كتاب تستلزم ثلاثة انماط من المعرفة:

الاولى: المعرفة السندية او الانتسابية؛

في هذه المرحلة نريد ان نعرف مامدى حتمية نسبة الكتاب الى كاتبه؟ على سبيل المثال افرضوا اننا نريد ان نعرف ديوان حافظ أو الخيام[1]، و اول ما نقوم به هو ان نعرف هل ان كل ما اشتهر باسم ديوان حافظ يعود كله لحافظ أم ان اجزاء منه تتعلق بحافظ بينما البقية منسوبة اليه. و كذلک الحال بالنسبة لخيام و الآخرين. وهنا تطرح النسخ الخطية نفسها و بالطبع تكون أقدم النسخ، اكثرها اعتباراً. و من هذا المنطلق نرى ان جميع الكتب دون استثناء بحاجة لهذا النوع من المعرفة، فكتاب حافظ الذي طبعه المرحوم قزويني والمتضمن للنسخ المعتبرة يتباين كلياً مع كتب هذا الشاعر التي كانت تطبع في ايران و بومباي و المتوفرة لدى اكثر العائلات. و تشكل الكتب التي طبعت باسم حافظ قبل ٣٠ــ٤٠ سنة ماضية ضعف الكتب التي يعتبرها الأخصائيون اليوم نسخاً معتبرة، بينما يتم في بعض الأحيان الحصول من بين الأشعار التي يعتبرها الأخصائيون منسوبة و مزيفة على اشعار بمستوى اشعار حافظ الجيدة، او عند ما تلقون نظرة على الرباعيات المنسوبة الى الخيام فيحتمل ان تشاهدوا ما يقارب ٢٠٠ رباعية هي بمستوى واحد واذا كان هناک تباين فانه يكون ضمن تلک الحدود الموجودة بين كل

---

١ ــ وهما شاعران ايرانيان.

الشعراء، وكلما رجعتم الى الوراء من الناحية التاريخية واقتربتم من عصر الخيام فانكم ترون بان الرباعيات المنسوبة اليه من بين هذه المجموعة يمكن ان تكون اقل من عشرين. بينما البقية اما مشكوك فيها او تتعلق بالآخرين.

وعلى هذا الأساس تتوقف المرحلة الأولى لمعرفة كتاب ما على مدى حجة نسبة الكتاب الى قائله اوجامعه؟ وهل ان نسبة جميع الكتاب صحيح أم ان قسماً منه صحيح والباقي غير صحيح؟ وفي هذه الحالة ما النسبة المئوية من المواضيع التي نستطيع ان نؤيدها من ناحية الانتساب؟ اضافة الى ذلك ما الدليل الذي نستطيع على ضوئه ان نرفض جزءاً منه و نؤيد جزءاً آخر ونشك في جزء آخر؟

القرآن ليس بحاجة الى هذا النوع من المعرفة، و على هذا الأساس فان الكتاب يتعلق بالعالم القديم ولايمكن الحصول من بين الكتب القديمة على كتابٍ آخر مرت عليه قرون و ظل الى هذا الحد بعيداً عن الشبهات. اِن مثل هذه المسائل و هي ان السورة الفلانية مشكوكة و الآية الفلانية توجد في النسخة الفلانية ولا توجد في النسخة الفلانية و... الخ ليست مطروحة أساساً حول القرآن بيد ان القرآن تقدم على النسخ و اخصائيي النسخ. و مما لاشك فيه ان الذي جاء بهذه الآيات هو محمد بن عبدالله بمثابة معجزات و كلام الله و ليس بامكان اى كان ان يدعي وجود قرآن آخر غير هذا ولم يظهر الى اليوم اى مستشرق في العالم يريد دراسة القرآن و يقول ــ يجب ان نبحث عن النسخ القديمة من القرآن لنرى ماذا يوجد و ماذا لايوجد فيها. و اذا كان هناك مثل هذه الحاجة بالنسبة للتوراة و الانجيل و كتاب اوستا او شاهنامة فردوسي و روضة سعدي و اي كتاب آخر فان القرآن في غنى عنه.

عدم الحاجة هذه تنشأ مثلما ذكرنا من تقدم القرآن على النسخ و

اخصائيي النسخ، فالقرآن علاوة على كونه كتاباً سماو ياً مقدساً و ينظر اليه مؤ يدوه من هذه الزاوية كان يعتبر اكبر دليل و برهان لصدق إدعاء الرسول الأكرم ومن اكبر معجزاته. ثم ان القرآن لم يكن مثل التوراة لينزل مرة واحدة و يتم التساؤل عن النسخ الرئيسية، بل ان آيات القرآن نزلت بالتدر يج خلال ٢٣ عاماً. و منذ اليوم الأول كان المسلمون يقرأون القرآن و يتعلمونه ــ مثل الانسان الكثير العطش الذي يشاهد امامه ماء أعذباً ــ وكانوا يحفظونه و يسجلونه عندهم. خاصة وان مجتمع المسلمين في تلك الأيام كان بسيطاً ولم يكن هناك كتاب آخر لكي يضطر المسلمون الى حفظه من جهة و تسجيله من جهة أخرى مع العلم ان الذهن الخالي وتوفر حافظة قو ية و تفشي الأمية أدى بالمسلمين ان يتلقوا معلوماتهم من ما كانوا يرونه او يسمعونه، لذلك فان رسالة القرآن التي كانت تتجاوب مع أحاسيسهم وعاطفتهم استقرت في قلوبهم بالضبط مثل النقوش التي تُحك على الاحجار. و بما انهم كانوا يعتبرونه كلام الله و ليس كلام البشر فكانوا يقدسونه و لا يسمحون لأنفسهم ان يتلاعبوا بكلمة أو حرف منه او يقدموا و يؤخروا فيه وكانوا يسعون على الدوام للتقرب الى الله بتلاوة هذه الآيات. اضافة الى كل ذلك فان الرسول الأكرم انتخب منذ اليوم الأول عدداً من الكُتّاب لتدو ين القرآن و يسمون بـ «كُتّاب الوحي». و يعتبر هذا امتيازا للقرآن بحيث لم يتمتع به أي كتاب آخر من الكتب القديمة. وكان تدو ين كلام الله منذ الأيام الأولى من جملة الأسباب الحتمية لحفظ وصيانة القرآن.

* * *

ومن الاسباب الأخرى التي دفعت الناس لقبول القرآن، الجانب الأدبي والفني المنقطع النظير لهذا الكتاب الذي يتم من خلاله

التعبير بفصاحة و بلاغة، فالجاذبية الأدبية الكبيرة للقرآن كانت تحرك الناس للاهتمام بالقرآن و تعلمه بسرعة. و خلافاً لسائر الكتب الأخرى مثل ديوان حافظ و اشعار مولوي و... الخ التي يتلاعب بها القراء ليكملوه حسب اعتقادهم، فان احداً كان لايتجرأ للتلاعب بالقرآن ذلک ان الآية التالية:

وَلَوْتَقَوَّلَ عَلينا بَعْضَ الأقاويلِ، لأخذْنا مِنهُ باليمينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنهُ الْوتين.

(سورة الحاقة آيات ٤٤ الى ٤٦)

والآيات الأخرى التي كانت تكشف عن نسبة الأقاويل الى الله، كانت تتجسم في ذهن ذلک الشخص و تحثه للانصراف عن هذا العمل.

و قبل ان يجد التحريف منفذاً لدخول هذا الكتاب السماوي فان آيات القرآن وصلت الى مرحلة بحيث اصبح من غير الممكن انكار القرآن او اضافة حتى حرفٍ واحد عليه او حذف حرف منه، لذلک فنحن لسنا بحاجة الى دراسة القرآن من هذه الزاوية بالضبط مثلما لايجد علم القرآن نفسه بحاجة الى مثل هذه الدراسة. لكن يجب الاشارة الى المسألة التالية وهي استناداً الى اتساع رقعة الاسلام بسرعة كبيرة والاهتمام الكبير الذي ابداه الناس في العالم ازاء القرآن و ايضاً بسبب تواجد اكثر المسلمين في خارج المدينة التي كانت مركزاً للصحابة و حافظي القرآن، فان خطر تغيير القرآن بشكل متعمد او غير متعمد كان موجوداً في المناطق البعيدة، غير ان يقظة و محاولات المسلمين وقفت امام هذا الأمر و منعته. المسلمون أحسّوا بهذا الخطر منذمنتصف القرن الأول و لهذا استفادوا من الصحابة وحافظي القرآن و وزعوا نسخاً مصدقة في

خارج المدينة للحد من التغييرات التي قد تطرأ على القرآن بصورة متعمدة او غير متعمدة في المناطق البعيدة عن المدينة و منعوا الى الأبد حصول أي تغيير في القرآن خاصة و ان اليهود كانوا من اكثر المصممين على هذا الأمر.

الثانية: المعرفة التحليلية

المرحلة الثانية تختص بدراسة تحليلية للكتاب، و بعبارة أخرى يجب ان نعرف ماذا يحتوي الكتاب وماهو هدفه؟ وماهو رأيه حول الكون؟ وحول الانسان؟ و حول المجتمع ايضاً؟ و كيفية طرح المسائل فيه و اسلوب تطرقه لتلك المسائل؟ و هل يمتلك نظرة فلسفية أم نظرة علمية كما يسمّونها اليوم؟ و هل يُنظَرُ الى الأمور من زاو ية عرفانية أم من زاو ية أخرى تختص به فقط؟ وهل يحمل الكتاب رسالةً و ارشاداً الى البشر ية أم لا؟ و اذا كان الجواب ايجابياً فما هي تلك الرسالة؟ في الحقيقة ان المجموعة الأولى من هذه الأسئلة تتعلق بنظرة هذا الكتاب حول العالم والانسان و الحياة والموت... الخ و بعبارة أدق النظرة الكونية للكتاب أو الحكمة النظر ية كما يطلق عليها فلا سفتنا، بينما المجموعة الثانية من الأسئلة تدور حول المشروع الذي يقدمه الكتاب لمستقبل الانسان؟ و ماهو الاساس الذي يستند عليه الكتاب لبناء الانسان والمجتمع؟ هذه الأشياء نقول عنها «رسالة» الكتاب.

* * *

يجب في هذا الفصل ان نعرف المسائل التي يتضمنها القرآن وكيفية عرض هذه المسائل، و ما هي الاستدلالات و الحُجج القرآنية في المجالات المختلفة؟ و هل ان القرآن باعتباره حافظ و حارس الايمان و رسالته، رسالة ايمانية ينظرالى العقل بعين منافس و يسعى للوقوف بوجه هجوم العقل لتقييده أوعلى العكس ينظر للعقل بعين مؤ يد و مدافع و

يستمد من قوته؟ هذه الاسئلة و عشرات الاسئلة المماثلة التي تطرح خلال المعرفة التحليلية تُقرّ بنا من القرآن اكثر فاكثر.

الثالثة: المعرفة الجذرية

يجب في هذه المرحلة بعد التأكد من صحة تعلق كتاب ما بكاتبه و بعد تحليل و دراسة ذلك الكتاب بشكل جيد، ان نجري تحقيقاً في الأمور التالية وهي: هل ان مواضيع ومحتويات الكتاب مبتكرة من قبل كاتبها أم مأخوذة من افكار الآخرين؟ فعلى سبيل المثال يجب بعد اجراء المرحلتين الأولى والثانية على ديوان حافظ ان نعرف هل ان هذه المواضيع والافكار والآراء التي جاء بها حافظ على هيئة كلمات و اشعار و عبارات و عبّر عنها بلغته الخاصة، مبتكرة من قبله أم ان المفردات و العبارات الجميلة والأدبية فقط، تتعلق به بينما الفكرة تعود للآخرين و بعبارة أخرى يجب بعد التأكد من الاصالة الأدبية لحافظ التأكد من اصالته الفكرية *؟

---

* يحتمل ان يكون حافظ اديبا وليس مفكراً أو عالماً و يحتمل ان يكون اديبا و مفكراً و عالما في نفس الوقت. و بالطبع فان حافظ كان يعتبر عالما قبل ان يكون شاعراً وكان على علم بكتب وافكار الآخرين سواء الشعراء والأدباء أوالمفسرين والفقهاء وخاصة العرفاء منهم وتعلم اكثر أو جزءاًمن آثار هؤلاء بواسطة اساتذته. واليوم ينظرون الى حافظ من زاويته الشعرية ولايعتبره احدمن العلماء بينما كان عالما في زمانه و يكتب الشعر احياناً. ولقد اوردت الكتب التي كتبت في ذلك الزمان اسم حافظ و منحته القابا جمّة تجمع اكثرها على ان حافظ عالم اكثر مما هو شاعر. والسؤال المطروح حول هذا الرجل العالم الذي كان على معرفة بثقافة زمانه وكانت له معلومات كثيرة حول العرفان والسيروالسلوك المعنويين وَ وَصَفَ السلوك العرفانى بلغة الشعر أفضل من أي شاعر آخر؛ هل كان حافظ متأثراًبشيء عند عرضه لهذه الأفكار أم انه ابتكرهابنفسه؟ وهل على سبيل المثال كان لمحي الدين الاندلسي الذي يعتبر أبا للعرفان الاسلامي، تأثير على حافظ؟ و هل ان ابن الفارض المصري الذي كان يعيش قبل حافظ وله منزلته في الأدب العرفانى للعرب مثل منزلة حافظ في الأدب الفارسى، لم يكن له تأثير على نمو افكار حافظ؟ الاجابة على هذه الأسئلة هي من وظائف المعرفة الجذرية.

هذا النوع من المعرفة حول حافظ أو أي مؤلف آخر ليست إلامعرفة من ناحية مصدر افكار المؤلف. و مثل هذه المعرفة تعتبر فرعاً للمعرفة التحليلية و بعبارة ثانية يلزم في الوهلة الأولى معرفة دقيقة للمحتوى الفكري الخاص بالمؤلف ثم القيام بالمعرفة الجذر ية والآفان نتيجة العمل تكون مشابهة لآثار بعض كُتّاب تار يخ العلوم من الذين لايفهمون شيئاً عن العلم و مع ذلک يكتبون تار يخ العلوم مثل عدد من مؤلفي الكتب الفلسفية الذين يعتزمون مثلاً الكتابة حول ابن سيناو ارسطو و أوجه التشابه و الاختلاف بينهما، لكن مع الأسف لايعرفون لابن سينا و لا ارسطو. مثل هؤلاء يصدرون رأيهم حال توصلهم الى تشابهات لفظية من خلال مقارنة صغيرة بينما تستلزم المقارنة فهم وإدراک عمق الافكار و ماهيتها ولكي يتم ادراک عمق افكار بعض المفكر ين مثل ابن سينا وارسطو فاننا بحاجة الى وقت طو يل، و الا فان ما يقال ليس الا تخمينا و تقليداً أعمى.

و في مجال دراسة القرآن ومعرفته علينا بعد اجراء دراسة تحليلية حوله ان نقوم بالمقارنة و التحليل التاريخي، اى ان نقارن القرآن و ما يحتو يه مع الكتب الأخرى التي كانت موجودة آنذاک و خاصة الكتب الدينية في ذلک الوقت. و يشترط في هذه المقارنة الأخذ بعين الاعتبار جميع الظروف و الامكانيات مثل حجم ارتباط شبه الجز يرة العر بية مع سائر النقاط والمناطق الأخرى وعدد الناس المتعلمين آنذاک الذين كانوا يعيشون في مكة و... الخ. و في ذلک الوقت يجب ان نتأكد هل ان ما يوجد في القرآن يوجد في كتب أخرى أم لا؟ و اذا وجد فما هى نسبته؟ و هل ان المواضيع المشابهة لمواضيع الكتب الأخرى، مقتبسة أم مستقلة؟ وهل يقوم بمهمة تصحيح اغلاط تلک الكتب و يبين انحرافاتها؟

اصالات القرآن الثلاث

إن دراسة القرآن تُقرّ بنا من «الاصالات الثلاث» لهذا الكتاب، فاولى اصالات القرآن: اصالة الانتساب من دون أية شبهة و حاجة للبحث عن النسخ القديمة. والمعروف ان مايتم اليوم تلاوته باسم القرآن هو نفس الكتاب الذي عرضه الرسول الأكرم (ص) بعد ان جاء به. اما الاصالة الثانية فهي اصالة المواضيع، أي ان تكون معارف القرآن غير مقتبسة بل مبتكرة. اما التحقيق في هذا المجال فيعتبر من وظائف المعرفة التحليلية. والأصالة الثالثة؛ اصالة القرآن الالهية، اي ان تكون هذه المعارف قد افيضت الى الرسول الأكرم من آفاق ماوراء ذهن الرسول (ص) وفكره وان الرسول ليس الا حاملاً لهذا الوحي وهذه الرسالة. و مثل هذه النتيجة يتم الحصول عليها من المعرفة الجذر ية للقرآن.

اما المعرفة الجذر ية أو بعبارة أخرى تحديد اصالة المعارف القرآنية فتستند الى معرفة من النوع الثاني. و على هذا الأساس نستأنف بحثنا حول المعرفة التحليلية، اي نتطرق الى المسألة التالية وهي؛ ما هي محتو يات القرآن و ما هي المسائل المطروحة فيه و ما هي المسائل التي يتم التأكيد عليها وما هي كيفية عرض مواضيع القرآن؟ ولوتمكّنا في المعرفة التحليلية ان نعطي الموضوع حقه و ننفذه بأحسن وجه و نتعرف على معارف القرآن بشكل افضل في تلك الحالة ومثلما قلنا مسبقاً، نصل الى اصالة تعتبر أهم اصالات القرآن الا وهي «الاصالة الالهية» اي كون القرآن معجزة.

شروط معرفة القرآن

تأتي معرفة القرآن وفق شروط يمكن اجمالها و اختصارها كمايلي: الشرط الأول فهم اللغة العربية. فمثلما لايمكن معرفة حافظ و سعدي * من دون فهم اللغة الفارسية، لايمكن فهم القرآن دون تعلم اللغة العربية. والشرط الثاني فهم التاريخ الاسلامي لأنّ القرآن ليس مثل التوارة والانجيل بحيث عرض مرة واحدة من قبل الرسول (ص)، بل نزل خلال مايقارب ٢٣ عاما من حياة الرسول (من يوم مبعثه الى وفاته) و خلال التاريخ الاسلامي المليء بالعظمة، ولهذا السبب تمتلك آيات القرآن ما يسمى بشأن النزول، و شأن النزول ليس شيئاً يحصر معنى الآية في نطاقه، وانما يؤثر بدرجة كبيرة في توضيح مضمون الآيات و يعتبر مفتاح حل.

اما الشرط الثالث؛ فهو فهم وإدراك احاديث الرسول الأكرم (ص)، فالرسول اول من فسّر القرآن و المفسر يعني الشخص الذي يبين مضمون القرآن كما جاء في القرآن بهذا الصدد:

وأنزلنا إليكَ الذِكْرَ لِتُبينَ للناسِ ما نُزِلَ إليْهِمْ

(سورة النحل ـ الآية ٤٤)

وجاء في آية أخرى:

هُوَ الذي بَعَثَ في الأُمّيّينَ رسولاً منهم يتلو عليهم آياته و يُزكّيهم ويُعلّمهُمْ الكِتابَ والحكمة...

(سورة الجمعة ـ الآية ٢)

فاستناداً لما ورد في القرآن الكريم، فان الرسول الأكرم يعتبر

---

* شاعران ايرانيان.

مفسر هذا الكتاب، و ما أثر عن الرسول يساعدنا على تفسير القرآن. اما بالنسبة لنا باعتبارنا شيعة و نؤمن بالائمة الأطهار و على اعتقاد بان ما ملكه الرسول بواسطة الله قد نُقِلَ الى اوصيائه ـــ فان احاديث الأئمة الموثوقة، لها نفس اعتبار احاديث الرسول (ص) لذلک تشكل روايات الأئمة الموثوقة دعماً كبيراً في طريق معرفة و فهم القرآن.

والمسألة الهامة التي يجب التأكيد عليها خلال دراسة القرآن، تتمثل بضرورة معرفة القرآن بواسطة القرآن نفسه و المقصود في هذا الكلام ان آيات القرآن تشكل بمجموعها بناءً متصلاً و بعبارة أخرى اذا فصلنا آية عن بقية آيات القرآن و قلنا نُريدُ ان نفهم هذه الآية فقط فاننا لم نتخذ اسلوباً جيداً. يحتمل ان يكون فهمنا صحيحاً لتلك الآية لكن هذا العمل يبقى ناقصاً. لماذا؟ لان القرآن يُفسر بعضه بعضاً بالضبط مثلمايقول بعض المفسرين ان الأئمة الأطهار وافقوا على اسلوب التفسير هذا. القرآن له اسلوب خاص به في توضيح المسائل. واذا اخذنا آية واحدة من القرآن دون ان نضعها بجانب الآيات المشابهة لهافان معناها سيكون متبايناً بدرجة كبيرة مع معناها في حالة وجودها مع الآيات التي لها نفس المضمون.

على سبيل المثال تعتبر الآيات المحكمة والآيات المتشابهة نموذجاً من اسلوب القرآن الخاص. هناک آراء عامة حول المحكمات والمتشابهات فالبعض يتصور ان الآيات المحكمة، آيات مضامينها مطروحة بشكل مبسوط و صريح بعكس الآيات المتشابهة حيث تكون مضامينها على شكل رموز وألغاز. و استناداً لهذا التعريف يحق للناس ان يتدبروا في الآيات المحكمة أي الصريحة فقط بينما الآيات المتشابهة غير قابلة للفهم مطلقاً ولايمكن التفكير حولها. وهنا يطرح السؤال التالي نفسه؛ ماهي فلسفة الآيات المتشابهة؟ ولماذا جاء القرآن بآيات غير قابلة للفهم؟ الاجابة على هذين السؤالين تتلخص في ان معنى المحكم ليس الصراحة

والبساطة وايضاً فان معنى المتشابه ليس الرمز واللغز، ذلك ان اللغز والرمز لفظان مبهمان لايمكن فهمهما بصورة مباشرة فمثلاً عندما خصص السلطان محمود شيئاً بسيطاً للشاعر فردوسي لخدماته التي قدمها فان فردوسي رفضه حتى انه هجا السلطان محمود في اشعاره واتهمه بالبخل والامساک فکانت بعض الابيات صريحة والبعض الآخر رمزية فمثلاً يقول في احدأبياته:

كفُّ الملكِ محمود الفاتح تسعة في تسعة مع ثلاثة في اربعة *

ما معنى هذا الكلام؟ استعمل الشاعر لغزاً يلزم حله لفهم البيت المذكور، و يقصد فردوسي من هذاالبيت مايلي:

ان حاصل ضرب ٣×٤ + ٩×٩ =٩٣

يقول فردوسي ان كف السلطان محمودتشبه رقم ٩٣، اي ان كفه مغلوقة بشكل حيث ان اصبع الابهام هوالوحيدالمفتوح في هذه الحالة و يشكل مع السبابة رقم (٩) و يشكل هذان الاصبعان مع الاصابع الأخرى عدد ٩٣. إذن اراد فردوسي بهذا البيت ان يُبين شدة بخل السلطان.

والآن هل توجد آيات رمزية في القرآن؟ هذا الكلام أو بالاحرى هذا السؤال يتباين مع ما جاء في القرآن.

ذلک الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين...

لاننسى انّ بعض المسائل المطروحة في القرآن خاصة المتعلقة منها بأمور الغيب و ماوراء الطبيعة غير قابلة للبيان بالمفردات و على حد

* النص الفارسي: كف شاه محمود كشوركشاى نُه اندر نُه آمد سه اندرچهار

قول الشيخ شبستري:

المعنى لا يأتي في الكلام دائماً

مثلما لا يستوعبُ الصحنُ بحراً عظيماً *

وبما ان لغة بيان القرآن هي نفس لغة البشر، اذاً فان المواضيع اللطيفة والمعنوية تم التعبير عنها بعبارات يستعملها البشر في المواضيع المادية، ولكي لانقع في الملابسات، فان بعض الآيات تطرح بشكل يلزم تفسيرها معه بالاعتماد على الآيات الأخرى وليس هناك حلٌ غير هذا. على سبيل المثال اراد القرآن ان يتحدث عن حقيقة اسمها رؤية الله بالقلب (اى ان الانسان يستطيع ان يرى الله بقلبه) لذلک صب في العبارات التالية:

وجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرةٌ الى ربها ناظِرةٌ

(سورة القيامة ـــ الآيتان ٢٢ و ٢٣)

استعمل القرآن لفظ الرؤية ولم يكن لديه لفظ مناسب غير هذا للتعبير عن مقصوده ولكي لانقع في الخطأ يقول في مكان آخر:

لا تُدْرِكهُ الابْصارُ وَ هُوَيُدرِكُ الأبْصارَ

(سورة الانعام ـــ الآية ١٠٣)

ويرى القارىء ان هذه الأمور منفصلة عن بعضها بالرغم من التشابه اللفظي الموجود بينها. ويقول القرآن كي يمنع اختلاط تلك المعاني العظيمة والرائعة مع المعاني المادية؛ ارجعوا المتشابهات الى المحكمات:

أنْزَلَ عليکَ الكتابَ منه آياتٌ محكماتٌ هُنَّ أمُّ الكِتاب

(سورة آل عمران ـــ الآية ٧)

ومثلما يُراجعُ الطفل امّه باعتبارها مرجع الطفل، أو المدن

* النص الفارسي: معانی هرگز اندرحرف نايد كه بحر بيكران در ظرف نايد

الكبيرة ـ ام القُرى ـ التي تعتبر مرجع المدن الصغيرة، فان الآيات المحكمة تعتبر بدورها مرجعا للآيات المتشابهة. الآيات المتشابهة خاصة بالفهم والتدبر شريطة التدبر بمساعدة الآيات المحكمة. و مايؤخذ من الآيات المتشابهة دون الاعتماد على الآيات الأم لن يكون صحيحاً او معتبراً.

هل القرآن قابل للفهم؟

عند تحليل و دراسة فحوى القرآن فان اول سؤال يطرح نفسه هو؛ هل ان القرآن قابل للفهم و الدراسة؟ و هل بالامكان التفكير والتدبر في قضايا و مسائل القرآن أم ان هذا الكتاب لم يُعرض اساساً للمعرفة بل للتلاوة والقراءة او الثواب والتبرک والتيمن؟ يحتمل ان نقول في انفسنا، انه لاداعي لمثل هذا السؤال ذلک ان احداً لايشک في مسألة ان القرآن كتاب للمعرفة. لكن نظراً للقضايا السلبية التي طرحت في العالم الاسلامي حول مسألة معرفة القرآن التي لعبت دوراً كبيراً في انحطاط المسلمين والموجودة جذورها لحد الآن في مجتمعنا، نرى انفسنا ملزمين باعطاء توضيحات بهذا الخصوص:

ظهر من بين المحدثين في القرون الثلاثة اوالاربعة الماضية اشخاص كانوا يعتقدون ان القرآن ليس حجة و كانوا يرفضون ثلاثة مصادر من المصادر الأربعة للفقه التي قدمت من قبل علماء الاسلام بمثابة معيار معرفة المسائل الاسلامية والتي تتكون من القرآن والشريعة والعقل والاجماع فبالنسبة للاجماع كانوا يقولون انه منهج مرفوض ولا يجوز اتباعه و فيما يتعلق بالعقل كانوا يقولون ان العقل بسبب اخطائه الكثيرة لايجوز الإعتماد عليه، وحول القرآن كانوا يدّعون بكل أدب ان القرآن اكبر بكثير من مستوانا نحن الذين نريد مطالعته و نفكر حوله والرسول والأئمة

وحدهم لهم حق التبحر في آيات القرآن، اما نحن فلنا حق التلاوة فقط. تلك الفئة لم تكن سوى فئة الاخبار يين.

يقول الاخبار يون لايجوز سوى مراجعة الاخبار والاحاديث. يحتمل ان تصيبكم الدهشة اذا علمتم ان هؤلاء كانوا يذكرون في تفاسيرهم الأحاديث إنْ وجدت تحت الآيات و في غير هذه الصورة كانوا لايذكرون الآية و كأن تلك الآية ليست من آيات القرآن!!

و يشكل هذا الأمر ظلماً بحق القرآن و خروجاً عليه و واضح ان المجتمع الذي يرفض بهذا الشكل، كتابه السماوي المتمثل بالقرآن و يتجاهله، لن يسير مطلقاً في طر يق القرآن.

و في ماعدا فئة الاخبار يين، كانت هناك فئات أخرى تؤكد ان القرآن بعيد عن الناس، من جملتها فئة الأشاعرة التي كانت تعتقد ان معرفة القرآن لاتعني التدبر في القرآن، بل فهم المعاني الحرفية للآيات و بعبارة أخرى، نقبل ما نفهمه من ظاهر الآيات ولانعير اهتماماً لباطنها. و في الحقيقة يؤدي اتخاذ مثل هذا الأسلوب حول القرآن الى الانحراف والضلالة ذلك ان هؤلاء كانوا مضطر ين لإعطاء معاني الآيات. و بما انهم اوقفوا حركة العقل، فلم يفهموا القرآن بشكل صحيح، لذلك انحرفوا بسرعة عن طر يق الادراك الصحيح واكتسبوا اعتقادات باطلة منها انهم كانوا يعتقدون بان الله جسم و مثات أخرى من هذه الاعتقادات مثل امكانية رؤ ية الله بالعين و التحدث معه بلغة البشر و... الخ.

امام تلك الفئة التي ابتعدت عن القرآن، ظهرت فئة أخرى استخدمت القرآن وسيلة لتحقيق اهدافها و اغراضها، على سبيل المثال كانت تُؤوِّل آيات القرآن متى ما اقتضت مصالحها وتنسب الى هذا الكتاب مسائل لم يتطرق اليها ابداً. و كانت الفئة المذكورة تجيب على الاعتراضات والاحتجاجات المختلفة بالقول، اننا الفئة الوحيدة التي تعلم

بباطن الآيات و ما نقوله ينبع اساساً من فهم وإدراك باطن هذه الآيات.

ورجال هذا التيار في التاريخ الاسلامي هما جماعتان: الاسماعيليون «المسمّون بالباطنيين» والمتصوفون. و يتواجد الاسماعيليون على الاغلب في الهند والى حد ما في ايران. اقام هؤلاء حكومة في مصر سُميّت بحكومة الفاطميين و يعتبرون من الشيعة الذين يؤمنون بستة أئمة وهم في الواقع استناداً الى اجماع واتفاق جميع علماء الشيعة الاثني عشرية، اكثر ابتعاداً عن التشيع من اي غير شيعي، حتى ان السُنّة الذين لايقبلون اي واحد من الأئمة بالشكل الذي يعتقد بهم الشيعة هم أقرب الى الشيعة من ما يسمى بشيعة الائمة الستة*

لقد ارتكب الاسماعيليون بواسطة افكارهم، خيانات عديدة في التاريخ الاسلامي و لعبوا دوراً بارزاً في تحريف المسائل الاسلامية.
و اذا غضضنا النظر عن الاسماعيليين، نرى ان المتصوفين كانت لهم يد طويلة في تحريف وتأويل الآيات وفق تصوراتهم الشخصية. وهنا نشير الى نموذج من تفاسير هؤلاء ليتضح اسلوبهم التحريفي ويطالع القارئ حديثاً مفصلا عن هذه المسألة.

جاء في القرآن حول قصة النبي ابراهيم و ابنه اسماعيل، ان ابراهيم يُؤمَرُ في المنام بذبح ابنه في سبيل الله. تصيبه الدهشة في الوهلة الأولى و بعد ان تكرر المنام توصل الى اليقين و استسلم لأمر الله واخبر ابنه بالأمر فما كان منه الا ان اطاعه باخلاص واستسلم للأمر

---

* شارك في المؤتمر الذي عقد قبل ٣٥ عاماً تحت عنوان «التقريب بين المذاهب الاسلامية» والذي حضرته المذاهب الاسلامية المختلفة لحل الملابسات، ممثلون عن الاسماعيليين و في المؤتمر قال الشيعة والسنة مخاطبين الاسماعيليين، نحن لانعتبركم من المذاهب الاسلامية مطلقاً وليس لكم حق المشاركة في هذا المؤتمر.

الالهي *. كان المقصود بالطبع، الاستسلام لأمر الحق ولهذا السبب عندما استعد الأب وابنه لتنفيذ امر الله تعالى انطلاقاً من اخلاصهما له، فان تنفيذ الأمر قد توقف بأذن الله. غير ان المتصوفين كانوا يقولون ان المقصود من ابراهيم هو ابراهيم العقل والمقصود من اسماعيل هو اسماعيل النفس وكان العقل ينوي ذبح النفس!

الواضح ان مثل هذا الاستنتاج يعني التلاعب بالقرآن وتقديم نوع من المعرفة التحريفية. يقول الرسول (ص) حول هذا النوع من الاستنتاجات التحريفية المبنية على الأهواء والرغبات الشخصية والجماعية:

مَنْ فَسَّرَ القُرآنَ برأيِهِ فَلْيَتَبوأ مَقْعَده في النارِ

مثل هذا التلاعب بالقرآن يُعدّ خيانة كبرى بحق القرآن *

و يقترح القرآن امام الجمود والتصلب الفكري للاخباريين و نظائرهم و امام انحرافات واستنتاجات الباطنيين الباطلة و غيرهم، حلاً وسطاً ألا وهو التأمل والتدبر اللامغرض والمنصف. فهو يدعو ليس المؤمنين فحسب وانما المغارضين كذلك، للتعمق بآياته و ينصحهم بالتفكير حول تلك الآيات بدلاً من الوقوف بوجهها. يقول لمعارضيه:

اَفَلا يَتَدَبّرونَ القُرآنَ أم على قُلوبٍ اَقْفالُها.

(سورة محمد ــ الآية ٢٤)

---

*... يابُنَي اِنِي أرى في المنام اني اَذْبَحُكَ فانظرماذا ترى قالَ يا أبتِ افْعَلْ ماتُؤمَرُ سَتَجدني إنْ شاءالله من الصابرين.

(سورة الصافات ــ الآية ١٠٢)

* اننا نجد مع الأسف ان سوق الاستنتاجات التحريفية والتفاسير الالتقاطية والأفكار المعادية للاسلام قداتسع نطاقها في عصرنا الراهن. وكان الاستاذ الشهيد آية الله مطهري قد استأنف نضالاً واسع النطاق لمواجهة هذه التيارات، ولم يناضل في هذا الطريق بفكره واسلوبه القوي فحسب وانما ضحى بحياته من أجل هدفه.

و يقول في آية أخرى:

كِتابٌ أنزلناه إليكَ مُباركٌ.

(سورة ص ــ الآية ۲۹)

لماذا؟ ليَدَّبَّروا آياته. فالقرآن لم ينزل لِيُقبّل او ليوضع على الرفوف بل للتدبر والتفكير في آياته؛ **وليتذكر أولوا الألباب**

هذه الآيات و عشرات الآيات الأخرى التي تؤكد على التدبر في القرآن تسمح كلها بتفسير القرآن وليس تفسيراً على أساس رغبات و أهواء النفس بل على اساس الانصافِ والصدق و بدون اي غرض. فعند ما نتأمل في القرآن من دون اي غرض فلا حاجة ان نحل جميع مسائله، لان القرآن من هذه الناحية يشبه الطبيعة، فالطبيعة مليئة بالاسرار والرموزالتي لم تحل لليوم ولايمكن حلها في الظرف الراهن بسبب عدم توفر امكانيات هذاالعمل، غيران هذه المسائل ستحل في المستقبل. اضافة الى ذلک يتطلب عند دراسة الطبيعة، ان يطابق الانسان فكره مع الطبيعة على حالتها، لاان يبررو يفسرالطبيعة حسب مايريد. والقرآن يشبه الطبيعة فهو كتاب لم ينزل لزمان واحد، والافان جميع اسراره كانت تُكشف في السابق وكان هذا الكتاب يفقد جاذبيته وطراوته وتأثيره و كما قال النبي محمد(ص) والائمة فانه يمكن دائماً التفكير والتدبر في القرآن و اكتشاف مسائل جديدة فيه. ولقد جاء في حديث للرسول الأكرم: مثل القرآن مثل الشمس والقمر يجرى مثلهما، اي انه ليس ثابتا و ذونمط واحد ولايستقر في مكان واحد. وايضاً يقول في مكان آخر:

القرآن، ظاهره انيق و باطنه عميق.

و جاء في كتاب «عيون اخبار الرضا» نقلاً عن الامام الرضا(ع) ان الامام سُئِلَ عن سر ازدياد تلاوة القرآن و ازدياد طراوته كلمامرزمان على القرآن؟

فَأكد الامام بان القرآن لم ينزل لزمان دون زمان ولناس دون ناس، ولان مُنزّله، أي الباري تعالى،اخرجه بشكل يكون في كلّ زمان متقدماً على الأزمنة والافكار برغم الفوارق المشهودة في اساليب التفكير والمعلومات و مساحة الأفكار، و في نفس الوقت يحتوي في كل مرحلة على عدة مجاهيل لقرائه ثم انه يقدم معانى كثيرة و مفاهيم قابلة للادراک والاستناد ليُشبع الظرف الزمني.

الفصل الأول

المعرفة التحليلية للقرآن

الفصل الاول:

المعرفة التحليلية للقرآن

ننوي في هذا الفصل، دراسة محتويات القرآن. ولاننسى اذا اردنا التطرق الى جميع مواضيع القرآن فان الأمر يستغرق وقتا طويلاً، و على هذا الأساس فاننا سنتناول العناوين العامة ثم نتطرق الى جزئياتها.

يتحدث القرآن عن مسائل جمة و يؤكد على بعض المسائل بدرجة كبيرة وعلى مسائل أُخرى بدرجة أقل. ومن جملة المسائل التي يتطرق اليها القرآن، مسألة الكون وخالقه. يجب ان نعرف ماهوفهم القرآن لله؟

هل هذاالفهم، فلسفي أم عرفاني؟

وهل ان القرآن بمستوى الكتب الدينية الأخرى مثل التوراة والانجيل أم انه يشبه الرسالات الهندية؟ وهل له اسلوب مستقل في معرفة الله؟

والمسألة الأخرى المطروحة في القرآن، مسألة الكون حيث يلزم تحليل نظرة القرآن حول الكون وهل يعتبر الخلق والكون عبثين ولعبتين او يعتبرهما حقاً؟ وهل يعتبر سير الكون مبنياً على سلسلة من السُنن والنواميس أم يعتبره شاذاً فلايشكل اي شيىء شرطاً لشيء آخر؟

ومن جملة المسائل العامة المطروحة في القرآن، مسألة الإنسان حيث يتطلب تحليل نظرة القرآن حول الانسان. هل يتحدث القرآن

بتفاؤل حول الانسان أو ان نظرته سلبية وغير متفائلة تجاهه؟ وهل يعتبر الانسان حقيراً او يقيم له كرامة وعزة؟

والمسألة الأخرى، مسألة المجتمع الانسانى، هل ان القرآن يقيم شخصية واصالة للمجتمع الانسانى او انه يعتبر الفرد اصلا فقط؟ وهل للمجتمع بنظر القرآن، حياة و صوت و تطور وانحطاط أم ان جميع هذه الصفات تختص بالفرد فقط؟ و تطرح في هذا المجال مسألة التاريخ وماهي نظرة القرآن للتاريخ؟ وما هي بنظر القرآن القوى المحركة للتاريخ و نسبة تأثيرالفرد في التاريخ؟

و يطرح القرآن مسائل جمة من جملتها رأي القرآن حول نفسه؟ ثم مسألة النبي في القرآن و كيفية تعريف القرآن للنبي و كذلك كيفية تحدثه معه. والمسألة الأخرى تعريف المؤمن في القرآن و صفات المؤمنين و... الخ . كل واحدة من هذه المسائل العامة لها تشعبات و فروع فعلى سبيل المثال عندما نتدارس الانسان يلزم بالطبع التحدث عن اخلاقه او عندما نتحدث حول المجتمع نرى انفسنا ملزمين بالتحدث عن علاقات الأفراد و مسألة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و مسألة الطبقات الاجتماعية و... و مسائل أخرى.

كيف يعرّف القرآن نفسه

من الافضل عند تحليلنا لفحوى القرآن ان نبدأ من هذه المسألة وهي ان نعرف ماهو رأي القرآن حول نفسه وكيف يُعرّف نفسه؟

اول ما يقوله القرآن عن نفسه هو ان هذه الكلمات والعبارات هي كلام الله. و يؤكد القرآن ان النبي لم يكتب القرآن بل انه يبين مانزل عليه باذن الله من الروح المقدسة اوجبرئيل.

اما التوضيح الآخر الذي يعطيه القرآن حول نفسه فيتمثل

بتعريف رسالته التي هي عبارة عن هداية ابناء البشر و ارشادهم للخروج من الظلمات الى النور:

كِتابٌ أنزَلْناهُ اليک لِتُخرِجَ الناسَ مِنَ الظُّلماتِ الى النُّور...

(سورة ابراهيم ــ الآية ١)

و مما لاشک فيه ان الجهالة هي من احدى مصاديق هذه الظلمات والقرآن يخرج البشر من هذه الظلمات الى النور. اما اذا كانت الظلمات تتمثل بالجهالة فقط لكان الفلاسفة قادرين على القيام بهذه المهمة غير ان هناک ظلمات أخرى اخطر من الجهالة حيث يعجز العلم عن مكافحتها ومن جملتها الجشع والغرور وحب النفس و.. الخ التي تُعدّ من الظلمات الفردية والأخلاقية والظلمات الاجتماعية ايضاً كالظلم و التفرقة... الخ. إن كلمة الظلم التي تقابلها بالفارسية كلمة «ستم» مأخوذة من كلمة الظلمة التي تعني نوعاً من الظلم الاجتماعي والمعنوي. و مكافحة هذه الظلمات تكون على عاتق القرآن والكتب السماوية الأخرى، فالقرآن يُخاطب موسى بن عمران قائلاً:

...أنْ أخرِجْ قَومَکَ من الظُّلماتِ الى النور...

(سورة ابراهيم ــ الآية ٥)

وهذه الظلمات هي استبداد فرعون واعوانه بينما النور هو نور الحرية والعدالة.

والملاحظة التي أكد عليها المفسرون هي ان القرآن يذكر الظلمات بالجمع مع الألف واللام لتعبر عن الاستغراق و تشمل جميع الظلمات في حين يذكر كلمة النور بالمفرد باعتبار ان طريق الحق واحد لاغير بينما الانحراف والضلالة لها طرق متعددة*

* ــ مثلاً نقرأ في آية الكرسي:

←

و بذلك يحدد القرآن هدفه؛ تحطيم قيود الجهل والضلالة والظلم والفساد الاخلاقي والاجتماعي و بعبارة أخرى، ازالة الظلمات و من ثم الارشاد نحو العدالة والخير والنور.

فهم لغة القرآن:

المسألة الأخرى، مسألة فهم القرآن و تلاوته. يتصور البعض ان المقصود من تلاوة القرآن هو قراءة القرآن بهدف الحصول على الثواب من دون فهم أي شيء من معنى الآيات. هؤلاء يختمون القرآن على الدوام اما اذا سُئلوا عن ما اذا كانوا يفهمون ما يقرأونه فانهم يعجزون عن الاجابة. إن قراءة القرآن لازمة وضرورية باعتبارها بداية لفهم معاني القرآن لا ان تأتي بهدف الحصول على الثواب.

وفهم معاني القرآن، هو الآخر له خصائصه حيث يتطلب اخذها بنظر الاعتبار. وعند مطالعة الكتب يحصل القارئ على سلسلة من الأفكار الجديدة التي لم تكن موجودة في ذهنه ابداً. و هنا فان عقل و قوة تفكير القارئ هما فقط اللذان يقومان بالفعالية. و فيما يتعلق بالقرآن، يتوجب مطالعته بهدف التعلم والتعليم. يقول القرآن بهذا الصدد:

كِتابٌ أَنزَلْناهُ إِليكَ مُبارَكٌ لِيَدبروا آياته وَلِيتذَكَّرَ اولوا الألبابِ
(سورة ص — الآية ٢٩)

للقرآن وظائف من جملتها التعليم و من هذه الناحية فان مُخاطب القرآن هو العقل حيث يتحدث معه بلغة المنطق والاستدلال. اضافة الى هذه اللغة يملك القرآن لغة أخرى لايتحدث بها مع العقل بل مع القلب و تسمى هذه اللغة بالاحساس. ومن يريد أن يتعرّف على القرآن

← الله ولي الذين آمنوا. يُخرِجُهُمْ مِنَ الظُلُماتِ الى النور والذين كفرُوا اولياؤهُمْ الطاغوت يُخْرِجُونهم من النور الى الظلماتِ

و يستأنس به يجب ان يكون ملماً بهاتين اللغتين و يستفيد منهما في آن واحد لان فصلهما عن بعضهما يوقع الانسان بالخطأ و يضره.

إن ما نسميه عقلاً، عبارة عن احساس كبير و عميق يتواجد فى داخل الانسان و يسمى احيانا بـ «احساس الوجود» اي الاحساس بارتباط الانسان بالوجود المطلق.

ومن يعرف لغة القلب و يخاطب الانسان بها، يحركه من اعماق الوجود و في ذلک الوقت لن يكون الفكر و العقل متأثرين فحسب بل ان جميع وجود الانسان سيكون متأثراً و على سبيل المثال ان جميع انواع الموسيقى لها عامل مشترک الاوهو الاحتكاک بعواطف الانسان، فالموسيقى تثير روح الانسان وتدخله في عالم خاص من الاحساس. و بالطبع يتباين نوع الا ثارة والاحساس المتولدين، من موسيقى الى اخرى مثلاً يحتمل ان يكون نوع من الموسيقى مرتبطاً باحساس الشجاعة و البسالة. إذن فهي تتحدث مع الانسان بهذه اللغة. انكم تلاحظون في ساحات الحرب انهم يعزفون الألحان والاناشيد العسكرية في بعض الأحيان يكون تأثير هذه الأناشيد او الألحان قوياً الى درجة يشجع الجندي الذي لايخرج من موضعه خوفاً من العدو، ان يخرج من ذلک الموضع و يتقدم نحو العدو ليحاربه. اما النوع الآخرمن الموسيقى فيحتمل ان يكون مختصاً بحس الشهوة و مثل هذه الموسيقى تأخذ بيدالانسان نحو الابتذال والسقوط والانحطاط و يلاحظ ان مثل هذا النوع من الموسيقى له تأثير كبير و يحتمل ان لايكون بمستطاع أي شيء آخر أن يؤثر بهذه الدرجة في تحطيم جدران الكرامة والاخلاق.

وفيما يتعلق بسائرالغرائزوالاحاسيس ايضاً، يمكن عند التحدث بهذه اللغة بواسطة الموسيقى اوبأية وسيلة أخرى، السيطرة عليها تماماً.

ومن اروع غرائز واحاسيس الانسان، الحس الديني وفطرة

القرآن يوصي بتلاوته بلحن لطيف وجميل وهو يتحدث مع فطرة الاتجاه الى الله. والقرآن يهتم بهذا الحس العظيم والشريف *

* قيلت اشياء كثيرة في مشارق الأرض ومغاربها حول هذا الحس الديني ونورد باختصار اقوال اثنين من المفكرين العالميين، تتعلق الاولى منها بالعالم «انشتاين» الذي يتناول المذهب في احدى مقالاته ويقول؛ كانت هناك ثلاثة انواع من المذاهب في العالم هي

١ ــ مذهب الخوف: اي مذهب جماعة اعتنقت المذهب على اثر مخاوفها من الطبيعة والمحيط.

٢ ــ مذهب الاخلاق: هدفه مذهبي ويستند الى المصالح الاخلاقية.

ثم يتحدث عن مذهب آخر يسميه ب«مذهب الوجود». هذا التعبير يشبه تعبيرنا حول القلب. يعتقد انشتاين ان هذا المذهب يريد في الواقع ان يقول؛

يحصل الانسان على حالة معنوية وروحية اذا ماخرج وتحرر من نطاق نفسه المحدود والمحاط بالآمال والاحلام الحقيرة والصغيرة والمنفصل عن الآخرين والتحرر كذلك من عالم الوجود الطبيعي الذي يشكل حصاراً حوله. وفي ذلك الوقت يبدأ النظر الى مجموع الوجود ويرى الوجود حقيقة واحدة ويرى بوضوح الروائع وانماط العظمة القابعة خلف الظواهر ويتذكر حقارته وتفاهته ثم يرغب في الاتصال بمجموع الوجود. وتعبير انشتاين هذا يذكرنا برواية هُمام الذي سأل امير المؤمنين(ع) عن صفات المؤمن فاعطاه الامام اجابة قصيرة ومقنعة حيث قال:

ياهُمام إتق الله واحسن إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون
«نهج البلاغة ــ الخطبة ١٨٣»

غير ان هُماماً لم يقتنع بهذه الاجابة وطلب توضيحات أخرى مثلاً سأل عن الحياة والعبادة وكيفية قضاء الأيام والليالي وآداب المعاشرة و.. الخ. لذلك تطرق الامام الى صفات المؤمن ورسم ١٣٠ خطاً من خطوط وجوه المتقين ومن جملة ما قال:

لولا الآجال التي كتب الله لهم لم تستقر ارواحهم في ابدانهم طرفة عين.

وهذه هي نفس الحالة التي يشير اليها انشتاين قائلاً: ان الانسان المذهبي يعتبر وجوده نوعاً من السجن المحاصر لانه يريد ان يطير من قفص الجسم ويرى الوجود كله ككتلة واحدة. هذه الحقيقة قد تجلت بشكل اوسع وافضل في كلمات اميرالمؤمنين(ع). برأي الامام علي(ع) كأنّ المؤمن جمع كل الوجود في جسمه المادي، ولهذا السبب يغادر قالبه ويحرر روحه. يقال ان هُماماً عندما انهى الامام حديثه، اطلق صرخة من اعماقه وفرغ القالب.

وفي مجال حس الانسان المعنوي يسرد الشاعر اقبال لاهوري حديثاً شيقاً فهو يقول؛

الانسان الالهية بهذه النغمة السماوية * ثم انه يستعمل لغتين لوصف نفسه في بعض الأحيان يعتبر نفسه كتاب التفكير والمنطق والاستدلال و في احيان أخرى كتاب الاحساس والحب، و بعبارة أخرى ان القرآن ليس غذاء العقل والفكر فحسب وانما غذاء الروح ايضاً.

يؤكد القرآن بدرجة كبيرة على موسيقيته الخاصة، تلك الموسيقى التي تؤثر اكثر من أية موسيقى أخرى في اشارة احاسيس الانسان العميقة والنبيلة، و يأمر المؤمنين ان يقضوا بعض الليل في تلاوة القرآن و يقرأوا القرآن في صلاتهم عند توجههم الى الله. يقول القرآن مخاطباً النبي (ص):

ياايها المزمل، قم الليل إلاقليلا، نصفهاوانقص منه قليلا ،اوزد عليه ورتل القرآن ترتيلاً.

«سورة المزمل ــ الآيات ١ ــ ٤»

والترتيل، يعني قراءة القرآن لكن ليس بسرعة بحيث لايتم فهم الكلمات، او ببطء، بحيث تنعدم الصلة بين العبارات. يقول إقرأوا القرآن بتأن مع فهم الآيات و يقول في الآيات اللاحقة.

ليس هناک اي سرولغز في هذا الكلام وهو ان الدعاء يعتبر وسيلة الاشراق النفسي والعمل الحياتي والطبيعي و بواسطته تكشف جزيرة شخصيتنا الصغيرة، موقعها في مجموع اكبر من الحياة. وهناک عبارة لوليام جيمز بهذا الصدد؛ دافع الدعاء هو نتيجة ضرورية لهذا الأمر و هو ان اعمق الارادات الاختيارية والعملية لكل شخص يعتبر نوعاً من الارادات الاجتماعية و مع ذلک فان الانسان يستطيع ان يجد مصائبه الكاملة في عالم افكاره فقط و ان اكثر الناس يرجعون في قلوبهم اليه سواء باستمرار او عن طريق الصدفة واحقرفردعلى وجه الكرة الارضية يحس بهذا التصور السامي، انه شخص حقيقي و ذوقيمة. يحتمل ان يكون هناک تباين بين الناس من حيث درجات التأثر. وهذا التصور يشكل لبعض الناس دون غيرهم الجزء الهام من الوعي الذاتي مثل هؤلاء الناس يحتمل ان يكونوا اكثر الناس التزاماً بالدين، لكنني على ثقة من ان الذين يدعون افتقارهم الكلي لذلک، لايخدعون الا انفسهم ذلک انهم يلتزمون بالدين الى حدما.

* كان الائمة (ع) يقرأون القرآن بصوت متناغم. بحيث ان المارة الذين كانوا يسمعون ذلک الصوت، كانوا يتوقفون دون اختيار و ينهمكون بالبكاء.

... فاقرأوا ماتيسر من القرآن علم ان سيكون منكم مرضى و آخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يُقاتلون في سبيل الله فاقرأوا ماتيسر منه واقيموا الصلوة وآتوا الزكوة واقرضوا الله قرضاً حسنا....
«سورة المزمل ــ الآية ٢٠»

لقد كانت موسيقى القرآن عند المسلمين، تحث على النشاط واكتساب القدرة الروحية والاخلاص والصفاء الباطني، وان نداء القرآن السماوي جعل في اقل مدة من اناس شبه الجزيرة العربية المتوحشين، مؤمنين صامدين استطاعوا ان يتحدوا اكبر قوى عصرهم و يقضوا عليها. و كان المسلمون لاينظرون الى القرآن ككتاب دراسي و تعليمي فقط بل كغذاء روحي ومصدر لكسب القوة وازدياد الايمان. كانوا في الليل يقرأون القرآن باخلاص * و يبتهلون الى الله، وكانوا في النهار يشنون مثل الاسود هجماتهم على العدو فالقرآن كان يتوقع هذا الشيء من المؤمنين، و يقول في آية مخاطباً النبي:

ولا تُطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً

«سورة الفرقان ــ الآية ٥٢»

وحياة النبي، مصداق لهذا الكلام. انه انتفض وحده من دون حماية ماسكاً القرآن بيده، لكن هذا القرآن اصبح كل شيء له، كان يُعدّ له الجنود والاسلحة والقوة و يجبر العدو ان يخضع و يستسلم له وكان كذلك يجر افراد العدو نحو النبي و يجبرهم على الاستسلام له، و بذلك كان يُنفذ وعود الله الصادقة *

---

* قال الامام زين العابدين (ع) في دعاء علّمه ليُقرأ بعد ختم القرآن... واجعل القرآن لنا في ظلم الليالى مؤنساً.

* وفي زمننا الراهن ايضاً، تحقق هذا الوعد الالهي الصادق للمرة الأخرى عندما قام رجل من سلالة النبي مثّل جده بتوجيه الضربات المهلكة لجند الكفر و قوى الباطل معتمداً في ذلک العمل على القرآن والايمان فقط . الناشر

عند ما يصف القرآن لغته، بلغة القلب فهو يقصد بهذا الكلام، ذلك القلب الذي يعتزم صقله و تنقيته واثارته بآياته. هذه اللغة هي غير لغة الموسيقى التي تغذي الشهوات الانسانية احياناً و غير لغة الألحان العسكرية والأناشيد الحربية التي تُعزف لتقوية روح البسالة بل هي تلك اللغة التي تصنع من الاعراب البدو، مجاهدين قيل في حقهم: **حملوا بصائرهم على اسيافهم.** هؤلاء كانوا لايفكرون بالمسائل الفردية والمصالح الشخصية. ومع انهم لم يكونوا معصومين و يقعون في الأخطاء، كانوا من جملة الذين يُطلق عليهم الكلام التالي، «**قائم الليل و صائم النهار**». كانوا في جميع اللحظات على ارتباط مع الوجود حيث كانوا يؤدون الفرائض الدينية في الليل و يجاهدون في النهار[1].

و **يؤكد القرآن على خاصيته هذه وهي انه كتاب القلب والروح**، كتاب يثير الارواح و يبكي العيون و يرجّف القلوب . هذا الأمر ينطبق على اهل الكتاب ايضاً:

الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون، واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا...«سورة القصص ــ الآية ٥٢، ٥٣»

و يؤكد ايضاً في آية أخرى ان بعض اهل الكتاب، اي المسيحيين هم أقرب الى المسلمين من اليهود والمشركين[2]. ثم يصف

---

١ ــ يذكر اميرالمؤمنين(ع) في الخطبة ١٩٣ المعروفة بخطبة المتقين من نهج البلاغة، صفات المتقين. و بعد ان يتطرق الى تصرفاتهم و اقوالهم يصف بعض حالات هؤلاء في الليل وعلى حد قول الشاعر الايراني سعدى يصف ليل رجال الله و يقول: اما الليل فصافون اقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلا.

يحزنون به انفسهم و يستثيرون به دواء دائهم. فاذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا اليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم اليها شوقاً، وظنوا انها نصب اعينهم. اذا مروا بآية فيها تخويف اصغوا اليها بمسامع قلوبهم وظنوا أنها زفير جهنم و شهيقها.

٢ ــ لتجدن اشدالناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا، الذين قالوا انانصارى. «سورة المائدة ــ الآية ٨٢»

النصارى الذين يؤمنون حال سماعهم القرآن بقوله:

واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين.

«سورة المائدة ــ الآية ۸۳»

و في مكان آخر، هكذا يصف المؤمنين عندما يتحدث عنهم بالذات:

الله نزّل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم و قلوبهم الى ذكر الله.

«سورة الزمر ــ الآية ۲۳»

يبين القرآن في هذه الآيات الأخرى انه ليس كتابا علميا و تحليليا فحسب بل انه في نفس الوقت الذي يستخدم فيه المنطق والاستدلال، يتحدث مع احساسيس واذواق ولطائف ارواح البشر و يجعلها تتأثر.

الذين يخاطبهم القرآن

من جملة المسائل التي يتطلب استنباطها من القرآن عند المعرفة التحليلية، تعين و تحديد الذين يخاطبهم القرآن. لقد وردت في القرآن عبارات كثيرة مشابهة لعبارات، **هدى للمتقين، هدى و بشرى للمؤمنين ولينذر من كان حياً.** وهنا يمكن ان نسأل بان الهداية للمتقين غير ضرورية للمتقين لانهم متقون. من جهة أخرى نرى ان القرآن يعرف نفسه هكذا:

إن هو إلا ذكر للعالمين و لتعلمن نبأه بعد حين *.

«سورة ص ــ الآية ۸۷و۸۸»

* هذه الآية من أعجب آيات القرآن، عند ما نزلت كان النبي في مكة يتحدث الى اهالي احدى القرى. وكان من (الباعث على السخرية) ان يقول شخص باطمئنان: انكم

اِذن، فهل هذا الكتاب لجميع العالم أم انه للمؤمنين فقط؟

وفي آية أخرى يخاطب الباري سبحانه و تعالى، النبي قائلاً:

وما ارسلناک الارحمة للعالمين «سورة الانبياء ـــ الآية ١٠٧»

وسنعطـــي في موضوع «التاريخ في القرآن» توضيحاً مفصلاً عن هذه المسألة، لكن يلزم هنا القول بالاجمال ان القرآن عندما يخاطب جميع افراد العالم في آياته، يريد ان يقول انه ليس ملكاً لقوم اوجماعة معينة. و من يتجه نحو القرآن يلاقي النجاة. اما في الآيات التي يصف القرآن نفسه فيها ككتاب هداية للمؤمنين والمتقين، يريد ان يقول من هم الذين سيتوجهون في النهاية نحوالقرآن وماهي الفئات التي ستبتعدعنه. والقرآن لايتحدث عن قوم او قبيلة معينة بمثابة محبيه اومؤيديه. لايقول انه ملک لهؤلاء القوم أو أولئک، فالقرآن خلافاً لجميع الأفكار لايؤكد مطلقاً على مصالح طبقة خاصة، على سبيل المثال لايقول انه جاء لضمان مصالح الطبقة الفلانية فقط. و ايضاً لايقول ان هدفه الوحيد يتمثل بالدفاع عن الطبقة العاملة او طبقة الفلاحين. وحول نفسه يؤكد بانه كتاب يرمي الى اِقامة العدل. و فيما يتعلق بالانبياء يقول:

وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط.

«سورة الحديد ـــ الآية ٢٥»

اِذن، فالقرآن يريد القسط والعدل للمجتمع الانساني ككل وليس لهذه الطبقة اوتلک اولأولئک القوم وتلک القبيلة. وهو خلافاً للأفكار الأخرى مثل النازية لايكسب الناس الى جانبه من خلال تأكيده على تعصبات هؤلاء، وايضاً خلافاً لبعض الافكار الأخرى مثل الفكرالماركسي لايعتمدعلى مطامع الناس ولايحركهم عن طريق

ستسمعون بعد حين بنبأ هذه الآية. ستسمعون ماذا سيفعل هذا الكتاب في العالم خلال فترة قصيرة.

مصالحهم *، لانه مثلمايقيم اصالة لوجدان الانسان العقلي، يقيم له اصالة وجدانية و فطرية ايضاً. و يحرك الناس على اساس فطرة طلب الحق والعدل، ولهذا لاتختص رسالته بطبقة العمال أو الفلاحين او المحرومين والمستضعفين. القرآن يحث الظالم والمظلوم على الرجوع الى طريق الحق والنبي موسى اوصل بدوره نداءالله الى بني اسرائيل والى فرعون كذلك وطلب منهم ان يؤمنوا بالله و يسيروا في طريقه. اما النبي محمد فقد عرض رسالة الله على زعماء قريش وعلى ابي ذروعمار ايضاً. و يورد القرآن نماذج متعددة من انتفاض الفرد على نفسه والعودة من طريق الضلالة والفساد (التوبة). و بالطبع يعلم القرآن ان عودة الذين يعيشون في نعيم ورخاء اصعب بدرجات من عودة المحرومين والمستضعفين.

الفئة الثانية، تسير في طريق العدالة استناداً الى ضرورة الأمر، بينما الأولى يجب في بادىء الأمر ان تغض النظر عن المصالح الشخصية والطبقية وتدوس باقدامها، ميولها و رغباتها.

يقول القرآن ان المتمسكين به لهم ارواح طاهرة ونقية، وهؤلاء انفتحوا على القرآن انطلاقاً من فطرتهم في طلب الحقيقة والعدل التي هي فطرة كل انسان وليس بدافع من المصالح والميول المادية والدنيوية.

---

* ذلک ان الحق والعدل للمتمسكين في تلک الحالة سيكونان بلا هدف لان تحقيق المصالح وارضاء الرغبات سيكونان هدفاً.

الفصل الثاني

ٱلْعَقْلُ مِنْ وِجْهَةِ نَظَرِ ٱلْقُرْآن

العقل من وجهة نظر القرآن

تحدثنا باختصار في الفصل السابق عن لغات القرآن وقلنا ان القرآن يستخدم لغتين لابلاغ رسالته الاوهما الاستدلال المنطقي والاحساس. فالعقل هولغة الاستدلال المنطقي بينما القلب هولغة الاحساس. و في هذا الفصل نتطرق الى رأي القرآن حول العقل.

يجب ان نعرف هل ان القلب من وجهة نظر القرآن، يعتبر سنداً، وعلى حد تعبير علماء الفقه والاصول، هل ان العقل حجة أم لا ؟ وهذا يعني انه اذا كان استدلال ما، استدلالاً صحيحاً للعقل فهل يلزم على البشر احترامه والعمل على ضوئه أم لا ؟ فاذا عملوا على ضوئه وارتكبوا الأخطاء في بعض الأمور، فهل يسامحهم الله أو يعاقبهم ؟ وان لم يعملوا فهل سيعاقبهم الله بدليل ان عقولهم دعتهم للعمل فلم يستجيبوا لها ام لايعاقبهم ؟

أدلة حجية العقل :

تعتبر مسألة حجية العقل من وجهة نظر القرآن، مسألة ثابتة، وان علماء الاسلام ماعدا افئة قليلة لم يشكوا بدورهم منذ

البداية ولحد الآن في حجية العقل، و اعتبروها جزءاً من المصادر الأربعة للفقه.

١ ـ دعوة القرآن الى التعقل

بما اننا نتحدث حول القرآن، فمن اللازم ان نستخرج الادلة التي تثبت حجية العقل من القرآن نفسه. فالقرآن صادق على النواحي المختلفة لحجية العقل ـ نعم اؤكد هنا على النواحي المختلفة ـ فمن ناحية واحدة فقط هناك ما يقارب من ستين الى سبعين آية قرآنية تشير الى هذه المسألة وهي: اننا طرحنا هذا الموضوع لتتعقلوا حوله. وعلى سبيل المثال اضرب لكم مثلاً عن تعبير رائع للقرآن. يقول القرآن:

إنّ شرّ الدّواب عند الله الصُّمُّ البكمُ الذين لا يعقلون

«سورة الأنفال ـ الآية ٢٢»

طبيعي ان القرآن لايعني بالصم والبكم الذين يفتقرون الى اللسان وحاسة السمع، بل تلك الفئة من الناس التي لا ترغب في سماع الحقيقة اوتسمعها ولا تُقِرُّبها. إن الأُذن العاجزة عن سماع الحقائق و مستعدة فقط لسماع الكلام التافه والعادي هى صماء من وجهة نظر القرآن. واللسان الذي يستخدم للكلام الفارغ أبكم برأي القرآن.

اما الذين لايعقلون فهم اشخاص لايستفيدون من افكارهم و يخاطبهم القرآن كحيوانات لان كلمة الانسان لا تليق بهم *

---

* الشاعر الايراني سعدي يعطي نفس المضمون في هذا البيت الجميل:

به نطق آدمى بهتر است از دواب
دواب از تو به گر نگويى صواب

كلام الانسان أفضل من الدواب
إلا ان الدواب أفضل منك إذا لم تقل الحق

وفي آية أخرى يصرح ضمن الاشارة الى مسألة توحيدية حول التوحيد الفعلي والتوحيد الفاعلي:

وما كان لنفسٍ أنْ تؤمِنَ إلاّ بأذنِ اللّه...

«سورة يونس ـــ الآية ١٠٠)»

و بعد الاشارة الى هذه المسألة الغامضة التي يعجز اي ذهن كان عن فهمها و إدراكها والتي تثير الانسان يضيف قائلاً:

...ويجعل الرِجْسَ على الّذين لايعقلون

«سوره يونس ـــ الآية ١٠٠»

في هاتين الآيتين التي أشرتُ اليها كنموذج ، يدعو القرآن حُسب اقوال اهل المنطق الى التعقل بوسيلة دلالة المطابقة. وهناك آيات كثيرة أخرى تؤكد مصادقة القرآن على حجة العقل بواسطة الدلالة الالتزامية*، و بعبارة أخرى يقول كلاماً لايمكن قبوله مالم يتم قبول حجية العقل. مثلاًيطلب من المقابل، استدلالاً عقلياً:

قُلْ هاتوا برهانكم

سورة البقرة ـــ الآية ١١١

و يريد بالدلالة الالتزامية ان يوضح هذه الحقيقة وهي ان العقل، سند وحجةٌ، او انه يستخدم رسمياالقياس المنطقي لا ثبات وجود

---

*مثلا اذا ارشدنا أمرالى أمر آخر فاننا نطلق عليه، اسم الدلالة. والدلالة لها انواع متعددة من جملتها الدلالة اللفظية وهذاالأمر يتحقق في ثلاث حالات:

١ ـــ دلالة المطابقة، اي ان يدل اللفظ على معناه الكامل. مثلاً عندما نقول سيارة، نعني السيارة وكافة اجزاءها.

٢ ـــ دلالة التضمن، اي ان يدل اللفظ على جزء من معناه مثلاً نقول هنا سيارة. نفهم من هذا الكلام ان ماكنة و مقاعد السيارة موجودة هي الأخرى هناك.

٣ ـــ الدلالة الالتزامية، اي ان يدل اللفظ على امر خارج عن معناه. مثلاً عند ما نسمع اسم «حاتم» فان الجود والكرم يخطران ببالنا.

واجب الوجود:

لوكان فيها آلهةٌ الاّ الله لفَسَدَتا

«سورة الانبياء ــ الآية ٢٢»

وهنا اوجد القرآن مسألة شرطية: يستثني المقدم و يتجاهل المؤخر فالقرآن يرمي من خلال تأكيده الكبير على العقل ان يثبت بُطلان كلام بعض الأديان الذي يقول ان الايمان غريب على العقل و يجب منع الفكر من العمل بغية اكتساب الايمان واستخدام القلب فقط ليدخل نورالله فيه.

٢ـ الاستفادة من نظام السبب والمسبب

الدليل الآخر الذي يؤكد ان القرآن يقيم اصالة للعقل، هو انه يبين المسائل وفق نظام السبب والمسبب. إن علاقة السبب والمتسبب واصل السبب هما اساس التفكير العقلي الذي يحترمهماو يستخدمهما القرآن. و بالرغم من ان القرآن حديث الله تعالى وان الباري سبحانه و تعالى هو الموجد لنظام السبب والمسبب وهو حديث عن ماوراء الطبيعة الذي لايصل نظام السبب والمسبب الى مستواه، مع كل ذلك فانه لايتغافل عن الاشارة الى نظام السبب والمسبب و ربط الأحداث بهذا النظام. على سبيل المثال خذوا بنظر الاعتبار الآية التالية التي تقول:

إنّ الله لايُغَيِّرُ ما بقومٍ حتى يُغيّرو اما بانفسهم

«سورة الرعد ــ الآية ١١»

يريد القرآن بهذا الكلام ان يقول؛ صحيح ان جميع المصائر بيدالله، لكن الله لايفرض المصيرعلى البشرمن دون اختيارهم وتصميمهم وعملهم ولايقوم بعمل فارغ. ذلك ان المصائرلها نظام. و ان الله لايغير مصير أي مجتمع كان دون سبب مالم يغير ذلك المجتمع مايخصه مثل الأنظمة الاجتماعية والأخلاقية والاجتماعية و... وكل مايرتبط بوظائف كل فرد من افراده.

من جهة ثانية يشجع القرآن، المسلمين على دراسة اوضاع و مصائر الأقوام السالفة و يأخذوا العبرة منها. و طبيعي اذا كانت مصائر الأقوام والشعوب والأنظمة مبنية على اساس العبث والصدفة، وكانت المصائرتفرض من الأعلى الى الأسفل، لكانت الدراسة والعبرة دون معنى. يريد القرآن بهذا التأكيد ان يقول ان انظمة واحدة تتحكم بمصير الأقوام. ولذلك اذا كانت ظروف مجتمع مشابهة لظروف مجتمع آخر فان مصيرهما سيكون واحداً. و يقول القرآن في آية أخرى:

فَكَأَيِّنْ من قرية اهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها و بئر معطلة و قصر مشيد. أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها..

«سورة الحج ــ الآيتان ٤٥ ــ ٤٦»

إن الاعتراف بالنظم بواسطة الدلالة الالتزامية في جميع هذه المسائل، يصادق على نظام السبب والمسبب. كما ان الاعتراف برابطة السبب والمسبب، يعني الاعتراف بحجية العقل.

٣ــ فلسفة الأحكام

ومن الأدلة الأخرى التي تثبت حجية العقل من وجهة نظر القرآن، هو ان القرآن يشير الى الفلسفة بخصوص الأحكام والأوامر. يقول علماء الأصول ان المفاسد والمصالح، تدخل ضمن نطاق اسباب الأحكام. مثلاً يقول القرآن، اقيموا الصلاة بينما يُشير في مكان آخر. الى فلسفة الصلاة:

إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر

«سورة العنكبوت ــ الآية ٤٥»

يشير القرآن في الآية الآنفة الذكر الى التأثير الروحي للصلاة وكيف انها ترفع من شأن الانسان بحيث تجعله ينصرف عن الفحشاء

والسيئات و يكنُّ لها الكراهية. او يقول عندما يتطرق الى الصوم:
كُتِبَ عليكُمْ الصيام كما كُتِبَ على الذينَ مِنْ قبلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقوْنَ
«سورة البقرة ــ الآية ١٨٣»

و كـذلـک الحـال بالنسبة لسائر الأحكام الأخرى مثل الزكاة والجهاد و.. الخ التي يوضحها من النواحي الفردية والاجتماعية. و بذلك يعطي القرآن، الأحكام السماو ية، طابعاً دنيو ياً و ارضياً علاوة على طابعها الميتافيز يقي. و يدعو الانسان ليتدبرحولها من أجل ان تتوضح ماهية المسائل ولكي لايتصور ان هذه المسائل هي من جملة الرموز التي تفوق البشر.

٤ ــ الحد من اخطاء العقل

والدليل الآخر الذي له دلالة عند القرآن على اصالة العقل و يعتبر من اوضح الدلائل الأخرى، هو مكافحة القرآن لمايقف حجر عثرة في طريق العقل. ولتوضيح هذا الأمر أرى من الضروري توضيح بعض المسائل.

في كثير من الأحيان يقع ذهن الانسان و فكره في الأخطاء .و هذا الأمر شائع بيننا. وطبيعي ان هذا لايقتصر على العقل فقط بل ان الحواس والأحاسيس ترتكب الاخطاء بدورها فعلى سبيل المثال ذكروا مئات الأخطاء للقوة الباصرة. وفيمايتعلق بالعقل نشاهدفي كثيرمن الاحيان ان الانسان يستدل و يستنتج على ضوء ذلک الاستدلال ثم يلاحظ ان استدلاله لم يكن صحيحاً من الأساس. وهنا يطرح السؤال التالي نفسه؛ هل يلزم في بعض الأحيان منع قوة التفكير عن العمل بسبب اخطاء الذهن او يتطلب استخدام بعض الوسائل لكشف اخطاء الذهن والحدمنها؟

كان السوفسطائيون يجيبون على هذا السؤال بقولهم؛ لايجوز الاعتماد على العقل، ثم ان الاستدلال ليس اِلاعملاً لغوياً. غير ان الفلاسفة اعطوا اجابات قاطعة في هذا المجال للسوفسطائيين من جملتها ان سائر الحواس الأخرى تقع في الخطأ مثل العقل لكن ليس هناك من يأمر باهمالها و عدم الاستفادة منها. ولما كان اهمال العقل ليس بالمقدور، اضطر المفكرون ان يسدوا طريق الخطأ. وعنددراسة هذه المسألة تبين لهم ان كل استدلال يتكون من شطرين ألاوهما المادة والصورة بالضبط مثل اي بناء ما حيث ان المواد المستعملة فيه مثل الاسمنت والحديد و... الخ تمثل المادة لإقامة شكل خاص يطلق عليه اسم الصورة. ولكي يقام البناء بشكل جيد من جميع النواحي، يلزم استخدام المواد اللازمة واعداد خارطة صحيحة وكاملة، و يلزم كذلك عند القيام بالاستدلال من أجل ضمان صحة العمل، التأكد من صحة المادة والصورة. لقد ظهر المنطق الارسطوي اوالمنطق الصوري، لاجراء دراسة حول صورة الاستدلال فوظيفة المنطق الصوري تنحصر في تحديد خطأ أو عدم خطأ صورة الاستدلال ومساعدة الذهن كي لايقع في الخطأ في تحديد خطأ أو عدم خطأ صورة الاستدلال و مساعدة الذهن كي لايقع في الخطأ في صورة الاستدلال *

---

* من جمله الأخطاء التي وقعت في مجال العلم خلال عدة قرون وأدت الى ملابسات كثيرة، ان البعض ظنّ ان وظيفة منطق ارسطو تقوم كذلك بتحديد صحة أو عدم صحة مادة الاستدلال. وبما ان منطق ارسطو كان عاجزاً عن القيام بهذا العمل فقد ادّعوا عدم فائدة منطق ارسطو. مع الأسف ان هذا الخطأ الكبير يتكرر كثيراً في عصرنا الراهن وان دل هذا على شيء انما يدل على ان اصحاب هذه الأقوال لايملكون معرفة حقيقية عن منطق ارسطو ولا يفهمونه. اذا اردنا الاستفادة من نفس المثال يلزم ان نقول ان وظيفة منطق ارسطو في تحديد صحة الاستدلال تشبه وظيفة الشاقول في تعيين صحة استقامة الحائط ولايمكن بواسطة الشاقول معرفة ما اذا كان الطابوق والاسمنت المستخدم في الحائط من نوع جيد أم لا، ←

اما المسألة الهامة فهي ان المنطق الصوري ليس كافياً لضمان صحة الاستدلال لانه يقوم بالضمان من ناحية واحدة. وللتأكد من صحة مادة الاستدلال، فاننا، بحاجة الى منطق المادة، اي اننا بحاجة الى معيار نستطيع بواسطته تقييم كيفية المواد الفكرية.

حاول العلماء امثال بيكن وديكارت ان يجدوا منطقاً لمادة الاستدلال يشبه منطق ارسطو الذي اوجده لصورة الاستدلال واستطاعوا الى حدما ان يوجدوا معايير في هذا المجال. ومع أنها لم تكن مثل منطق ارسطو من الناحية العامة لكنها كانت تساعد الانسان على عدم الوقوع في الخطــأ عند الاستدلال. ويحتمل ان لا تصيبكم الدهشة اذا ما علمتم ان القرآن قدّم مسائل جمة حول الاستدلال بغية الحد من الوقوع في الأخطاء، حيث تُفضَّل على تحقيقات بعض العلماء امثال ديكارت و تتقدم عليها.

«مصادر الخطأ من وجهة نظر القرآن»

من المصادر التي يذكرها القرآن حول الخطأ ، هو ان يستخدم الانسان، الظنّ بدلاً من اليقين[1] ولو اتّبَعَ البشر، اليقين في المسائل ولم يقبلوا الظنّ بدلاً من اليقين، فلن يقعوا في الأخطاء[2]. القرآن يؤكد على هذه المسألة بدرجة كبيرة، حتى انه يصرح في احدى الآيات ان اكبر خطأ فكري للبشر هو الظن، او يقول في آية أخرى مخاطباً النبي:

فالشيء الوحيد الذي يوضحه الشاقول هو استقامة أوعدم استقامة صورة الاستدلال فقط ولاينفي او يثبت صحة المادة، حيث يبقى ساكتاً لانه لايستطيع ان يقول شيئاً.

١ ــ قاعدة ديكارت الأولى تقول نفس الشيء. يقول ديكارت: إنني بعد اليوم لن اقبل أية مسألة كانت مالم أدرسها واحقق حولها واذا لم اتأكدمنها مئة بالمئة فلن استفيدمنها و اهملها. هذا هوالمعنى الصحيح لليقين.

٢ ــ لكن يجب ان نعلم انه عندما لانحصل على يقين في المسائل الظنية والمحتملة ــ يجب ان نأخذ الظن بنظر الاعتبار. و يلزم قبول الظن بدل الظن والاحتمال بدل الاحتمال وليس الاحتمال بدلاً عن اليقين لانه يوقعنا في الأخطاء.

وانْ تُطِعْ اكثرَ مَنْ في الأرضِ يُضِلُوکَ عن سبيلِ الله انْ يَتَّبِعُونَ إلا الظنَّ وانْ هُمْ إلاّ يَخْرصون..

«سورة الأنعام ــ الآية ١١٦»

أو انه يقول في آية أخرى:

ولا تقفُ ماليس لک به عِلمٌ

«سورة الاسراء ــ الآية ٣٦»

وهذا التحذير يعتبر الأول من نوعه الذي اعطاه القرآن للبشر خلال تاريخ الفكر البشري ونهاهم فيه عن ارتكاب مثل هذه الأخطاء.

اما المصدر الثاني لنشوء الخطأ في مادة الاستدلال الذي يُطرح بشكل خاص في المسائل الاجتماعية، و هو مسألة التقليد، حيث ان اكثر الناس يعتقدون بما يعتقد به المجتمع، اي انهم يقبلون ما يقبله المجتمع او ما قبلته الأجيال السالفة بدليل ان تلک الاجيال قبلت ذلک [3] بينما يقول القرآن: ادرسوا كل مسألة بمعيار العقل وليس ان توافقوا على ما فعله اجدادكم كسندٍ او ترفضوه اساساً، فهناک مسائل طرحت في الماضي وكانت خطأ منذ الأساس، غير ان الناس وافقوا عليها و هناک مسائل صحيحة أخرى طرحت في الأزمنة البعيدة لكن الناس رفضوها بسبب جهلهم. لذلک يلزم استخدام العقل والفكر عند تقييم هذه المسائل وعدم تقليدها بشكل اعمى، فالقرآن يضع في كثير من الاحيان، مسألة تقليد الآباء والاجداد، امام العقل والفكر:

واذا قِيلَ لَهُمْ اتبعوا ما أنْزَلَ اللهُ قالوا بَلْ نتَّبعُ ما أَلْفينا عليه آباءنا أَوَلَوكان آباؤهُمْ لايَعْقِلونَ شيئاً ولا يهتدونَ

«سورة البقرة ــ الآية ١٧٠»

---

٣ ــ هذه المسألة وردت في احاديث بيكن وبما انه يسمّي احد الاصنام التي يتحدث عنها بالصنم الاجتماعي اوالعرفي فهولن يتحدث سوى عن هذا التقليد الأعمىٰ.

يؤكد القرآن ان قدم الفكرة ليس دليلاً لا على خطئها ولا على صوابها فالقدم يدخل في الأمور المادية، غيران حقائق الوجود لايؤثرعليها الزمن ولا تزول كلما تقدّم بهاالزمن، بالضبط مثل هذه الحقيقة التي تبقى ثابتة«إنّ الله لايُغيِّر ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم» . و يؤكد القرآن كذلك على ضرورة استخدام العقل والفكر لمواجهة المسائل، اي يجب عدم اهمال عقيدة ما بدليل ان البقية يطعنون الانسان بسببها ويجب عدم اهمال عقيدة ما بدليل تعلقها بهذه الشخصية المعروفة اوتلك، حيث يتطلب الامر من الانسان ان يدرس جميع المسائل بنفسه*.

والعامل الآخرالذي يُساعدعلى نشوء الخطأ والذي يتحدث القرآن عنه كثيراً هو اتباع اهواء النفس والرغبات النفسية وامتلاك الغرض. وعلى حدقول الشاعر الايراني مولوي:

عندما جاء الغرض زال الأدب

هناك مئةٌ من الحجب توجه من القلب للبصر

واذا لم يتخل الانسان في كل مسألة عن شرالأغراض فلن يستطيع التفكير بشكل سليم، اي ان العقل لن يستطيع ان يعمل بشكل صحيح مالم يكن المحيط مجرداً من اهواء النفس. هناك رواية معروفة عن العلامة الحلي تقول:

كان العلامة الحلي يفكر في هذه المسألة الفقهية وهي اذا مات حيوان في بئر وظل الحيوان النجس في البئر، فما العمل الذي يتطلب القيام به حول ذلك البئر؟

في هذه الا ثناء وقع حيوان من باب الصدفة في بئرمنزل العلامة

---

* يلزم عدم دمج مسألة تقليد الآباء والأجداد او الكبار ولون المجتمع التى ينهى القرآن عنها مع مسألة تقليد المجتهد العالم والعادل المطروح في الفقه والذي يعتبرامراً واجباً ويعتمد على مراعاة التخصص والاستفادة من عالم التخصص.

الحلي فاضطر الحلي للتفكير حول مايلزم اتخاذه. لم يكن هناك سوى حلين، الاول: دفن البئر والاستفادة من بئر اخرى، والثاني: سحب كمية قلية من ماء البئر والاستفادة من البقية، لكن العلامة شعر انه لايستطيع الحكم بدون اي غرض حول هذه المسألة ذلك ان مصالحه كانت مطروحة ايضاً في تلك المسألة. لذلك فان اول ما قام به هو انه أمر بدفن البئر ثم تفرّغ الى صدور الحكم والفتوى براحة بال و من دون ضغط أهواء النفس. والقرآن يتحدث في آيات كثيرة حول اتباع اهواء النفس نكتفي بذكر واحدة منها. يقول القرآن:

إنْ يتبعُون إلاّ الظنّ وماتهوى الأنْفُسُ

«سورة النجم ــ الآية ٢٣»

الفصل الثالث

نَظْرَةُ الْقُرْآنِ لِلْقَلْبِ

نظرة القرآن للقلب

اعتقد انه لا حاجة لتوضيح هذه المسألة وهي ان المقصود من القلب في التعبير العرفاني والأدبي ، ليس ذلك العضو اللحمي الذي يقع في القسم الأيسر من الجسم والذي يقوم مثل المضخة، بضخ الدم الى الأوردة والشرايين.على سبيل المثال يقول القرآن في الآية التالية:

اِن في ذلک لذکری لمن کان له قلب

«سورة ق ــ الآية ٣٧»

او كما في هذا التعبير العرفاني اللطيف للشاعر الايراني حافظ: *

جمح القلب في غفلة الفقير الزاهد فلم يعد يدري شيئاً عن مصيره.

والواضح ان المقصود من القلب، حقيقة متعالية وممتازة تتباين كلياً مع هذا العضو من الجسم، و مثلما يشير القرآن الى امراض القلب قائلاً:

في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللّه مَرَضاً

«سورة البقرة ــ الآية ١٠»

---

* النص الفارسي:

دلم رمیده شد وغافلم من درویش
که این شکاری سرگشته چه آمد پیش

فإن طبيب الأمراض القلبية غيرقادر على معالجة هذا المرض. و اذا استطاع طبيب ما ان يعالج مثل هذه الأمراض فهو بدون شك يجب ان يكون متخصصاً في الأمراض الروحية.

تعريف القلب

إذن فما هو المقصود من القلب؟

الاجابة على هذا السؤال، تكمن في حقيقة وجود الانسان، فالانسان علاوة على كونه موجوداً واحداً، له مئات و آلاف الأبعاد. و «النفس» الانسانية عبارة عن مجموعة كبيرة من الأفكار، والأحلام، والمخاوف، والآمال، والحب و... جميع هذه الأشياء تلتقي في نقطة واحدة مثل الأنهار والجداول. و مثل هذه النقطة تعتبر بحراً عميقاً بحيث ان اي انسان واع لم يدع لحد الآن معرفته باعماق ذلك البحر. والعرفاء والفلاسفة وعلماء النفس تعمقوا في هذا البحر واستطاع كل واحد منهم ان يكتشف اسرار ذلك البحر الى حدما. و يحتمل ان يكون نجاح العرفاء اكثر من غيرهم في هذا المجال. إن ما يسميه القرآن بالقلب، عبارة عن حقيقة ذلك البحر، حيث ان ما تسميها بالروح الظاهرية ليست الا جداول وانهاراً تصب في هذا البحر. حتى ان القلب يشكل بدوره نهراً يصب في هذا البحر.

و عند ما يتحدث القرآن عن الوحي، فانه لايتحدث عن العقل مطلقاً ذلك ان حديثه ينحصر عن قلب الرسول (ص) فقط، و بعبارة أخرى ان القرآن لم يُخْلَق بقوة عقل النبي واستدلاله العقلي بل ان قلب الرسول (ص) هو الذي وصل الى حالة غيرقابلة للتصور بالنسبة لنا بحيث حصل في تلك الحالة على استعداد لادراك ورؤية تلك الحقائق المتعالية. وتبين آيات سورة النجم و سورة التكوير الى حدما، كيفية هذا

الارتباط*.

عنـدمـا يـتحـدث الـقرآن عن الوحي والقلب فان بيانه يتعدى الـعـقـل والفكر لكنه ليس ضدهما. وفي هذا المجال يبين القرآن نظرة اكبر مـن الـعـقـل والاحـسـاس بحيـث ان الـعـقل لايدخلها اساساً و يعجزعن إدراكها.

خصائص القلب

يـشـكـل القلب بنظر القرآن، آلة للمعرفة ايضاً، حيث ان الجزء الأكبر من حديث القرآن يخاطب قلب الانسان. حديث لايستطيع سماعه سوى اذن القلب ولايمكن لأُذن أخرى سماعه. و على هذا الأساس يؤكد الـقـرآن كـثـيراً على حفظ و حراسة و تكامل هذه الآلة. و نرى في القرآن آيات كثيرة تتحدث عن تزكية النفس و نور القلب و صفائه:

* نقرأ في سورة النجم مايلي:
وَما يَنْطِقُ عَنْ الهوىٰ، اِن هوالاّ وَحيٌ يُوحىٰ، عَلَّمَه شَديدُ القُوى، ذُومِرّةٍ فاستَوى، وَهُوَ بالأُفُق الأعلى، ثم دنا فتدلى، فكان قاب قوسين او ادنى، فأوحىٰ الى عبده ما أوحى، ماكَذَب الفؤادُ مارأى
«الآيات ٣ــ١١»

يقول القرآن جميع هذه الأشياء ليؤكد ان مستواها يفوق نطاق عمل العقل. اذن فالكلام هنايدورعن الرؤية والتعالي.

اوانـنا نقرأ في آيات من سورة التكوير مايلي:

وما صاحبكم بمجنون، ولقد رآه بالافق المبين، وماهوعلى الغيب بضنين، و ماهو بقول شيـطان رجيم فَأَيْنَ تَذْهَبُون، اِن هواِلاذكرللعالمين، لمن شاءمنكم انّ يستقيم، وماتشاؤون الا ان يشاءالله رب العالمين.
«الآيات ٢٢ ــ ٢٩»

و يـقـول الـشاعر اقبال لاهوري في هذا المجال: انالنبي شخص يعرف حقـائق لا تعد ولاتحصى و يبين ما اتاه لتحسين الاوضاع و تغيير مسيرالتاريخ.

قَدْ أَفلَحَ من زكيهٰا

«سورة الشمس ــ الآية ٩»

كلا بَلْ رانَ على قلوبِهِمْ ما كانوا يَكْسِبُون

«سورة المطففين ــ الآية ١٤»

وحول نور القلب يقول القرآن:

اِنْ تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً

«سورة الأنفال ــ الآية ٢٩»

أو انه يقول في آية أخرى:

والذين جاهَدوا فينا لَنَهدَينَّهُمْ سُبلَنا

«سورة العنكبوت ــ الآية ٦٩»

و يتحدث القرآن كثيراً عن هذه الأعمال اللامرغوبة التي يقوم بها الانسان والتي تُمرض روحه و تأخذ منها الجذب والميول الطاهرة. فهو يقول على لسان المؤمنين:

رَبَّنَا لا تُزِغْ قلُوبنا بَعْدَ اِذهَدَيتنا

«سورة آل عمران ــ الآية ٨»

او انه يقول:

كلا بل رانَ على قلوبِهِمْ ما كانوا يكسِبُونَ

« سورة المطففين ــ الآية ١٤»

فلما زاغوا أزاغ الله قلُوبَهُمْ

«سورة الصف ــ الآية ٥»

خَتَم اللهُ على قلوبِهِمْ وعلى سَمْعِهم و على ابْصارهِمْ غِشاوَةٌ

«سورة البقرة ــ الآية ٧»

وجعلنا على قلُوبِهم اَكِنَّة اَنْ يَفقَهُوهُ

«سورة الانعام ــ الآية ٢٥»

كذلك يطبعُ اللّهُ على قلوبِ الكافرينَ

«سورة الأعراف ــ الآية ١٠١»

فَقَسَتْ قلوبهم وكثيرٌ منهم فاسِقونَ

«سورة الحديد ــ الآية ١٦»

وجميع هذه التأكيدات تبين ان القرآن يقيم جواً روحياً و معنوياً رفيعاً للانسان، و يرى من الضروري ان يحافظ الانسان على هذا الجو النزيه و السليم. و بالرغم من ان محاولات الانسان في الأجواء الاجتماعية غير النزيهة تبقى فاشلة و دون جدوى، الا ان القرآن يؤكد على ان الانسان يجب ان يسعى لتطهير وتزكية محيطه الاجتماعي . و يؤكد القرآن كذلك ان الحب والايمان والافكار والميول المتعالية و تأثيرات القرآن ونصائحه و... كل هذه الأشياء تتوقف على ان يبقى الانسان والمجتمع الانسانى بعيدين عن الرذالة والدناءة وحب الأهواء والشهوات.

و يوضح التاريخ انه كلما ارادت السلطات الحاكمة السيطرة على مجتمع ما و استثماره، فانها تحاول افساد روح ذلك المجتمع. ولكي تحقق هدفها هذا، توفر للناس التسهيلات اللازمة من أجل تحقيق شهواتهم وتشجعهم على الشهوة. و من جملة هذه الأساليب القذرة التي اصبحت درساً، الكارثة التي وقعت في اسبانيا المسلمة ــ التي كانت تعتبر من المصادر الهامة للنهضة ومن افضل الحضارات الأوربية ــ لقد أفسد المسيحيون روحية واخلاق الشباب المسلم بغية انتزاع اسبانيا من قبضة المسلمين، حيث وضعوا الى الحد الذين قدروا عليه، وسائل اللعب واللهو والشهوة تحت اختيار المسلمين، و تقدموا في هذا الأمر الى حد خدعوا الحكام والمسؤولين، ولوثوهم فيه. ولهذا تمكنوا من القضاء على عزيمة المسلمين وارادتهم وشجاعتهم وايمانهم وطهارة روحهم وتبديلهم الى

اناس ضعفاء، و منحطين يفكرون في الشهوة مدمنين على الكحول. وطبيعي ان دحر مثل هؤلاء الناس ليس بالأمر الصعب، فلقد انتقم المسيحيون من حكومة المسلمين التي دامت ٣٠٠ ــ ٤٠٠ سنة بشكل يخجل التاريخ نفسه من الاشارة الى تلك الجرائم. لقد اقام هؤلاء المسيحيون الذين يلزم عليهم طبقاً لتعليمات المسيح ان يقدموا خدهم الأيسر اذا صُفع خدهم الأيمن، بحراً من دماء المسلمين في الاندلس و بلغوا بأعمالهم تلك مستوى جنكيزولا ننسى ان اندحار المسلمين جاء نتيجة لانحطاطهم و فساد ارواحهم و عقاباً بسبب عدم التزامهم بتعليمات واحكام الاسلام.

وفي عصرنا الراهن يحاول الاستعمار اينما وضع اقدامه، التأكيد على تلك المسألة التي يحذر القرآن منها، اي انه يسعى لافساد القلوب فاذا فسد القلب يعجز العقل لا عن عمل أي شيء فحسب بل يصبح هو الآخر قيداً في يد الانسان وعنقه. لذلك نلاحظ ان المستعمرين والمستثمرين لا يخشون فتح المدارس والجامعات بل يساعدون بانفسهم على تأسيسها، لكنهم من جهة ثانية يبذلون مابوسعهم لافساد قلب و روح طلبة المدارس والجامعات. انهم يدركون هذه الحقيقة وهي ان الروح المريضة غير قادرة على انجاز اي شيء وتستسلم لكل رذيلة واستغلال واستثمار.

و يولي القرآن أهمية بالغة لتعالي ونزاهة روح المجتمع، حيث يقول في احدى آياته:

وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان

«سورة المائدة ــ الآية ٢»

وحول القلب اورد لكم اقوالاً عن النبي والأئمة ليختم هذا الموضوع على أحسن وجه. جاء في كتب السيرة:

ان رجلاً دخل في احد الأيام على الرسول الأكرم (ص) وطلب ان يطرح بعض الاسئلة فسأله النبي (ص) عما اذا كان يريد سماع الاجابة أم يرغب في السؤال اولاً؟ فقال له الرجل تفضل بالاجابة فاخبره النبي (ص) بانه جاء يسأل عن معنى البر والتقوى والاثم والعدوان، فاجابه الرجل، نعم ان هذا هو سؤالي وحينئذ جمع النبي ثلاثة اصابع وضرب بها صدر الرجل قائلاً له إسأل نفسك عن هذا الامر، ثم اخبره بان قلب الانسان صنع بشكل يرتبط بالحسنات فيهدأ معها، لكن السيئات والقبائح تزعجه و تجعله مضطربا، بالضبط مثل جسم الانسان الذي اذا دخله شيء لايتجانس معه فانه يؤثر على انتظامه و يخل بعمل اعضائه المختلفة. وان روح الانسان تنزعج و تختل بدورها على اثر الاعمال السيئة. ومايسمى عندنا بعذاب الوجدان ينشأ من عدم تجانس الروح مع القبائح والسيئات.

استفت قلبك و ان افتاك المفتون

صبّ الشاعر الايراني مولوي هذا القول في شعر يقول في احد ابياته:

استمع لقول الرسول (ص) استفت قلبك

حتى وان كان المفتي - خارجاً - قد أفتى فضولاً بخلافه

و يقول في بيت آخر مايشبهه.

يؤكد النبي ان الانسان اذا كان يطلب الحقيقة و محايداً ومخلصا لكشف الحقيقة فان قلبه سوف لن يخونه مطلقا بل سيهديه الى الطريق الصحيح. و طبيعي ان الانسان الذي يبقى يبحث بصدق عن الحق و الحقيقة ويخطو في طريق الحق فانه يصل اليها. وعندما ينجرف الانسان الى الضلالة فان السبب يكمن في ان الانسان اتخذ منذ البداية موقفا خاطئاً

ولم يكن يبحث عن حقيقة خالصة. لقد اجاب الرسول (ص) على سؤال شخص سأله عن معنى البر موضحاً له انه لو كان يبحث عن البر حقاً فمتى ما هدأ قلبه بشيء وارتاح له فليعلم بان ذلک هو البر، لكن متى ما احب شيئا ولم يهدأ قلبه فليطمئن بان ذلک هو الاثم.*

وفي مكان آخر يسألون النبي (ص) عن معنى الايمان فيرد عليهم بان الانسان يشعر بعدم الار تياح والندم عند الاثم و بالسعادة عند العمل الحسن باعتبار انه يمتلک الايمان.

و ينقل عن الامام الصادق (ع) انه عندما يتحرر الانسان من مشكلة حب الدنيا فانه يشعر في قلبه بحلاوة حب الله. و في مثل هذه الحالة تبدوله الارض وكأنها غير الأرض و يرغب بكامل وجوده ان يتحرر من عالم المادة هذا و ينفذ الى الخارج. وهذه حقيقة اثبت صحتها اولياء الله ورجاله من خلال حياتهم. لقد جاء في تاريخ حياة النبي (ص) انه توجه في احد الأيام بعد صلاة الصبح الى اصحاب الصفة الذين كانوا اناساً فقراء لايملكون من مال الدنيا شيئاً و يعيشون في المدينة الى جوار مسجد النبي (ص) في هذه الاثناء وقع نظر النبي (ص) على شخص من هؤلاء يدعى زيداً أو حارث بن زيد وكان منهوک القوى وعيناه مغموستان في رأسه. فسأله النبي عن حاله فاجابه بانه اصبح من اهل اليقين. وعندما طلب منه علامة ذلک، اكد بان علامة يقينه هي انه لاينام الليل و يصوم كل النهار و يقضي الليل في العبادة. فاستزاده النبي (ص) فاستمر ذلک الشخص باحصاء سائر العلامات موضحاً بانه الآن في حالة يشعر معها و كأنه يرى اهل الجنة والنار و يسمع اصواتهم وانه مستعد للافصاح عما يوجد في باطن اصحاب النبي (ص) اذا اذن له. فلم يأذن له. وانما سأله

---

* النقل بالمعنى

عن رغبته فاكد انها الجهاد في سبيل الله *.

وان تعليمات القرآن تؤكد على ان صقل القلب يرفع من شأن الانسان، و علي اميرالمؤمنين عليه السلام يقول: «لو كشف لي العظاء ما ازددت يقيناً». إن ما يؤكد القرآن عليه في تعليماته هو تربية الاشخاص الذين يملكون سلاح العلم والعقل و يستخدمون سلاح القلب في طريق الحق باسلوب أفضل.

---

* النقل بالمعنى.

